

غازي عبدالرحمن القصيبي



Twitter: @abdullah_1395
22.5.2012

من هم الشعراء الذين يتبعهم الفاوون؟



الدار
الساقية

غازي عبدالرحمن القصيبي

من هم الشعراء الذين يتَّبِعُهُم الفاعون؟



السَّافِر

© دار الساقى جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية ١٩٩٤

ISBN 1 85516 895 2

بناية ثابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص ب : ١١٣/٥٢٤٢ بيروت - لبنان
هاتف : ٣٤٧٤٤٢ (٠١) : فاكس : ٦٠٢٢١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office : 26 Westbourne Grove, London W2 5RH, Tel: 071-221 9347 ; Fax : 071-229 7492

Twitter: @abdullah_1395

إلى صديقي الكريم الدكتور عبد اللطيف حسام كافر
تحية لجهده الرائدة في إفساء
"بيت القرآك" في البحرين

مدخل

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ • وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ • إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَغْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١)

منذ أن أنزلت هذه الآيات الكريمة من سورة الشعراء وإلى يومنا هذا، لا أظن أن شاعراً عربياً واحداً لم يسمع من الآخرين، على سبيل الغمز واللمز غالباً، أنه يقول ما لا يفعل. ولا أحسب أن شاعراً عربياً واحداً لم يقل للآخرين بدوره، على سبيل العذر والتبرير غالباً، إنه يقول ما لا يفعل. فإذا صحت هذه الملاحظة، وليس هناك من وسيلة للتثبت من صحتها، كان معناها أن ثمة تفاهماً غير مكتوب بين الشعراء وغير الشعراء على أنه يحق للشعراء، دون غيرهم من البشر، أن يكذبوا. ولا اعتراض لديّ على مثل هذا التفاهم، إن وجد. اعتراضى أن يستند تفاهم

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧.

كهذا إلى آيات من كتاب الله الحميد، فليس في الكتاب الحميد ما يجيز لأحد، شاعراً كان أو ناثراً، أن يكذب.

يُروى أن سيدنا عمر بن الخطاب استعمل شاعراً، اسمه النعمان بن فضلة، على ميسان من نواحي البصرة. وما إن استقرَّ صاحبنا في مكان عمله حتى أرسل رسالتين شعريتين استفزازيتين إحداهما إلى زوجته، وهذه أمرها يهون، والأخرى إلى رئيسه، أمير المؤمنين، وهذه أمرها أصعب، يصف مشهداً شبيهاً بما يدور في المحلات التي يطلق عليها هذه الأيام اسم «علب الليل»:

فقرن مبلغُ الحسَاءِ أن حليلها بميسان يُسقى في زجاج وحتم^(١)
إذا شئتُ غنتي دهاقين قرية ورقاصة تجذو على كل منسم^(٢)
فإن كنتَ ندماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلّم^(٣)
لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنّا بالجوسق التهدم^(٣)

ولا يسجل لنا التاريخ ما فعلت الحسَاء بعد استلام رسالة حليلها، إن كانت قد فعلت شيئاً، ولكنه يسجل لنا ما فعل أمير المؤمنين الذي ساءه ما سمع، فقد استدعى العامل الشاعر وعزله من عمله. وتضيف الرواية أنه درأ عنه الحدّ لاعتذاره بالآية الكريمة التي تصف الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون.

كما يُروى أن الفرزدق أنشد سليمان بن عبد الملك قوله:

(١) الحتم: الحجرة.

(٢) أي ترقص على أطراف أقدامها. والدهاقين: كبار المزارعين.

(٣) الجوسق: القصر.

فبتن بجانبِي مُصرَّعاتٍ وبِتُّ أفضُّ أغلاق الختام^(١)

فقال له الخليفة «قد وجب عليك الحدّ!» فردّ الشاعر: «يا أمير المؤمنين! قد درأ الله عني الحدّ بقوله ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾^(٢)».

ويروي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «إن العلماء اختلفوا إذا اعترف الشاعر في شعره بما يستوجب حدّاً، على قولين: أحدهما: أنه يقام عليه الحدّ لأنه أقرّ به، والإقرار تثبت به الحدود. وثانيهما: أنه لا يُحدّ بإقراره في الشعر لأن كذب الشاعر في شعره أمر معروف معتاد واقع لا نزاع عليه».

ويضيف أنه يؤيد رأي الفقهاء الذين يدرأون الحدّ عن الشعراء^(٣). ويبدو أن كفة هذا الرأي هي التي رجحت إذ إننا لم نسمع بحدود أقيمت على الشعراء بناءً على أشياء وردت في شعرهم.

ولي تعليق بسيط على قصة الشاعرين مع سيدنا عمر ومع سليمان بن عبد الملك. لقد تبجّح عامل ميسان، وهو بلغة اليوم موظف عام، علناً بأنه يعمل ما يسوء رئيسه. وهذا التبجّح، سواء كان كاذباً أو

(١) لم أعثر على هذا البيت في ديوان الفرزدق الذي تضمه مكتبي، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ولعله سقط سهواً، أو لعل الشاعر قرر حذفه بعد الحادثة إشارةً للسلامة.

(٢) انظر القصتين، في القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. وسكتفي في كتب التفسير المشهورة بالإشارة إلى اسم الكتاب والسورة، وثبتت بقية التفاصيل في قائمة المراجع.

(٣) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م) الجزء السادس، ص ص ٣٩٠ - ٣٩١ (لم يذكر مكان الطبع).

صادقاً، وسواء كان شعراً أو نثراً أو سجعاً، يكفي، في نظري، لإقالة المتبجح، وهذا ما فعله سيدنا عمر. كان القرار، على ما أتصور، قراراً إدارياً ولم يكن قضاءً شرعياً. أما بيت الفرزدق فالصورة الواردة فيه موغلة في الخيال الخصب الواسع، حتى لتكاد تذكرنا بمبالغات «أبو لمعه». أحسب الخليفة كان يمازحه، وأشك أنه كان على وشك إقامة الحد عليه. كما أن لي تعليقاً على مباحث الفقهاء الأجلّاء حول إقرار الشاعر باقرار ما يوجب الحد في شعره. لقد وضع الفقه الإسلامي للإقرار الذي يؤدي إلى تطبيق الحد العديد من الضوابط، تستهدف كلها درء الحدود بالشبهات وذلك صوناً للحقوق وضمانة للعدالة وحماية للبريء. في الإقرار بالزنا، على سبيل المثال، اشترط الفقهاء أن يتكرر الإقرار «أربع مرّات». كما اشترطوا أن يتضمّن «حقيقة الفعل لتزول الشبهة لأن الزنا يُعبرّ عما ليس بموجب للحدّ». وكذلك اشترطوا أن يكون الإقرار من «بالغ صحيح عاقل». فإن أقر بالزنا وهو سكران لم يعتبر إقراره لأنه لا يدري ما يقول. وقالوا إنه «لا يصحّ الإقرار من المكره». واشترطوا أيضاً أن يبقى على إقراره لا ينزع عنه حتى تمام الحد^(١). وتطلّب الفقهاء، في إقرار السارق، أن «يتكرّر مرتين». كما تطلبوا أن يتضمن الإقرار «شروط السرقة من النصاب والحرز وإخراجه منه». وكذلك تطلّبوا «ألا ينزع عن إقراره حتى يقطع». وأجازوا «تلفين السارق ليرجع عن إقراره»^(٢). وإنه لشعر عجيب حقّاً هذا الذي تتوفر فيه شروط الإقرار هذه، كلها أو بعضها.

(١) انظر ابن قدامة، المغني، (القاهرة: مطبعة العاصمة) ص ٣٤ - ٣٩ (لم يذكر تاريخ الطبع).

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١١٥ - ١١٧.

إن الشعر لا يصلح إقراراً شرعياً لا لأن الشاعر صادق أو كاذب بل لأن طبيعة الشعر وأسلوبه وخياله وصوره تجعل روحه ولغته بعيدة كل البعد عن روح الإقرار الشرعي ولغته. وعن لغة الشعر يقول ابن العربي رحمه الله: «أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحدّ وتجاوزت المعتاد»^(١). ويقول العلامة القرطبي رحمه الله في معرض تعليقه على قصيدة كعب بن زهير الخالدة «بانت سعاد» أن النبي ﷺ كان «يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح»^(٢).

على أن تعليقي هذا، كائناً ما كان نصيه من الصحة، لا ينفي أن الشعراء، أو عدداً كبيراً منهم على أية حال، رأوا أن الآية الكريمة التي تصف الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون تنطبق عليهم. كما أن الفقهاء الكرام الذين بحثوا المباحث التي ألحنا إليها في إقرار الشاعر وانتهوا إلى درء الحدّ عن الشاعر قد اعتمدوا على الآية الكريمة نفسها. وفي أيامنا هذه لا يزال عامة الناس وخاصتهم يصفون الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون مستندين، بدورهم، إلى الآية الكريمة ذاتها.

هل هذه الآيات التي تتحدث عن الشعراء تنطبق على الشعراء جميعاً بحيث لا يستثنى منهم أحد إلا من استثنته الآية الأخيرة وبالشروط المنصوص عليها في الاستثناء، كما رأى بعض من بحثوا الموضوع وتأملوه؟ أم أن الآيات الكريمة تتحدث عن شعراء بعينهم، حاربوا الله ورسوله قولاً وفعلاً، وأن الاستثناء إنما يؤكد أن هؤلاء الشعراء هم المقصودون، كما يرى بعض من بحثوا الموضوع وتأملوه؟

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الشعراء.

(٢) المرجع السابق نفسه.

بالإمكان أن نطرح السؤال على نحو آخر: هل للإسلام موقف مناهض للشعر، من حيث هو شعر، وللشعراء، من حيث هم شعراء، باستثناء شعر معين لشعراء معينين تتوفر فيهم شروط معينة؟ أم أن موقف الإسلام من الشعر، من حيث هو شعر، ومن الشعراء، من حيث هم شعراء، لا يتصف بأي نوع من أنواع العداء باستثناء شعر كافر لشعراء كفار هجوا الرسول وحاربوا الدعوة؟ أجد نفسي بعد دراسة لا تخلو من تأمل وتمعن لما كتبه نوابغ مفسرينا عبر التاريخ مطمئناً إلى أن المعنى الثاني هو الأقرب إلى روح الإسلام، وهو المعنى الذي تلهمه القراءة الفاحصة المستقصية.

غير أنني قبل أن أنتقل إلى المبررات التي ينهض عليها الفهم الذي رجحته أحب أن أقف قليلاً عند اعتراض سمعته كثيراً. الاعتراض مبني على القاعدة الشهيرة في علم أصول الفقه «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». يقول الاعتراض ما دامت كلمة الشعراء قد وردت عامة مطلقة فيجب أن تسري على الشعراء عامة ومطلقاً. وأنا لا أجادل هنا في صحة القاعدة، وهي ذات نفع كبير في فهم النصوص، إلا أنني أجادل في مدى انطباقها على الحالة التي نحن بصدددها. إن كلمة الشعراء وردت متبوعة بصفات لا تنطبق على كل الشعراء، الأمر الذي يصعب معه القول إنها وردت عامة. كما أنها وردت متبوعة باستثناء واضح، الأمر الذي يصعب معه القول إنها وردت مطلقة. وعلاوة على ذلك ففي أسلوب البلاغة القرآنية «عام يراد به خاص». ويورد العلامة ابن قتيبة، رحمه الله، عدة أمثلة على ذلك كقوله سبحانه وتعالى حكاية عن النبي ﷺ «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١)، وأراد مسلمي زمانه. وكقوله

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٣.

سبحانه وتعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾^(١) وإنما قال ذلك فريق من الأعراب. ويذكر ابن قتيبة، الآية التي نحن بصددتها فيقول: «ومن العام المراد منه خاص قوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ولم يرد كل الشعراء»^(٢).

ليست، ثمة، سبب أصولي يدفعنا إلى القول إن الشعراء موضوع البحث هم الشعراء قاطبة، الأمر الذي يسمح لنا أن نتقل خطوة أخرى فنتساءل، من هم، إذن، هؤلاء الشعراء؟!

قبل أن نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، وما يحيط به ويتلوه من أسئلة، يحسن أن نستعرض موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء لتبين ما إذا كانت آياته الكريمة تحتوي على عداء جلي أو خفي للشعر والشعراء. ويحسن بعدها أن نتقل لنرى الموقف من الشعر والشعراء في السنة النبوية المطهرة. وننهي جولتنا بطائفة من آراء السلف الصالح في الشعر. لعلنا بعد هذه الجولة نكون قد وضعنا أيدينا على المفتاح الذي يسهل لنا فهم الآيات الأربع الكريمة من سورة الشعراء.

(١) سورة الحجرات، الآية ١٤.

(٢) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، (القاهرة: دار التراث العربي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، ص ٢٨١.

الشعر والشعراء في القرآن الكريم

كل ما ورد في القرآن الكريم عن الشعر والشعراء، دون استثناء، يستهدف شيئاً واحداً هو تكذيب المشركين في دعواهم أن القرآن شعر، وأن النبي ﷺ شاعر. فقد وردت كلمة الشعر في القرآن الكريم، لأول مرة، في سورة يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾^(١). ثم ورد ذكر الشعراء في الآيات الأربع موضوع البحث، وسنرى أنها هنا وردت للهدف ذاته. ثم جاءت كلمة شاعر في سورة الصافات: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ ودفعت السورة هذه الفرية البذيئة: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢). ثم وردت الكلمة في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرِيهَ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ويجيء الرد: ﴿لَمَّا آمَنَتْ بَقِيْلُهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣). ثم جاءت الكلمة في سورة الطور مقرونة بتهديد من المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾. وجاء التحدي: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا

(١) سورة يس، الآية ٦٩.

(٢) سورة الصافات، الآيتان ٣٦ و ٣٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان ٥ و ٦.

فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ^(١). ثم وردت الكلمة في سورة الحاقة
تجمل الموقف القرآني الذي استعرضناه^(٢): ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا
تُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

رغم أن قريش كانت على جحودها الظاهر مدفوعة بشيء يشبه
الإعجاب الخفي بالقرآن عندما سمته شعراً، ورغم المكانة الهائلة للشاعر
في المجتمع الجاهلي، فقد كان موقف القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى
حاسماً جلياً قاطعاً: القرآن ليس بشعر؛ وصاحب الدعوة ﷺ ليس
بشاعر. كان لا بدّ من إيضاح الأمور منذ البداية حتى لا تغييم الرؤية
وتختلط الأدوار. يقول سيد قطب رحمه الله:

والرسول ﷺ، لا يقول اليوم قولاً ينقضه غداً، ولا يتبع أهواء
وانفعالات متقلّبة، إنما يصرّ على دعوة ويثبت على عقيدة، ويدأب
على منهج لا عوج فيه. والشعراء ليسوا كذلك، الشعراء أسرى
الانفعالات والمواطف المتقلّبة، تنحكم فيهم مشاعرهم ثم هم
أصحاب أمرجة لا تثبت على حال^(٤).

هذا وقد كان سيد قطب، في بداية حياته الأدبية على أية حال،
شاعراً مطبوعاً، فهو يتكلم عن مزاج يعرفه. إلا أن نفي صفة الشاعر عن
الرسول ﷺ، وصفة الشعر عن كتاب الله الحميد لا تعني أي عدا

(١) سورة الطور، الآيتان ٣٠ و ٣١.

(٢) اعتمدنا في ترتيب نزول السور على الزركشي البرهان في علوم القرآن، (بيروت:
دار المعرفة: ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م) الجزء الأول، ص ١٩٣.

(٣) سورة الحاقة، الآية ٤١،

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)،
المجلد الخامس، ص ٢٦٢١.

للشعر. يقول سيد قطب:

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ. إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن... ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون، وإلى خفايا النفس البشرية، وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن^(١).

وفي الموضوع ذاته يقول محمد قطب: «إن الآيات التي وُجِّهَتْ للشعراء العرب في الجاهلية لم توجَّهْ ضد الشعر في ذاته. ولا وُجِّهَتْ ضدَّ الشعراء على إطلاقهم. وإنما ضدَّ نوع معين من الشعراء»^(٢).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، المجلد الخامس، ص ٢٦٢٢.

(٢) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، الطبعة السابعة، ص ١٣٩.

الشعر والشعراء في السنة النبوية

صحت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في الشعر نكتفي بإيراد بعضها. عن أبي بن كعب رحمه الله (أنه ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة») [أخرجه البخاري وأبو داود]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (جاء إعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام فقال «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً») [أخرجه الترمذي وأبو داود]^(١).

وعن عائشة، رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يضع لحيان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ، أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاحر عن رسول الله ﷺ») [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي واللفظ للترمذي]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (مرّ عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ إليه شراً فقال: «قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك»، ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: «أنشدك الله

(١) راجع الأحاديث الكريمة التي استشهدنا بها في المتن وغيرها مما يتعلق بالشعر في ابن الأثير الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، (بيروت: مكتبة حلواني، مطبعة الملاح، مطبعة دار البيان، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م)، الجزء الخامس، ص ص ١٦٣ - ١٨١.

أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أئده بروح القدس؟». فقال «اللهم نعم» [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي واللفظ للشيخين]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبدالله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقبله ويذهل الخليل عن خليله
فقال عمر «يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟» فقال رسول الله ﷺ «خلّ عنه يا عمر. فلهي أسرع فيهم من نضح النبل» [أخرجه الترمذي والنسائي] (١).

وعن عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي عن أبيه (ردفت رسول الله ﷺ فقال «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟» فقلت «نعم» قال «هيه». فأنشدته بيتاً. فقال «هيه». ثم أنشدته بيتاً، فقال «هيه» حتى أنشدته مائة بيت) [أخرجه مسلم]. وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه (جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما تبسم معهم) [أخرجه الترمذي]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل» [أخرجه البخاري ومسلم]. وعن عائشة رضي الله عنها عندما سؤلت إن كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر قالت: (كان يتمثل بشعر ابن رواحة، ويتمثل ويقول: «يأتيك بالأخبار من لم تزود») [أخرجه الترمذي].

(١) نلاحظ في هذا الحديث وما سبقه أن اعتراض سيدنا عمر كان منصباً على مكان الإنشاد - المسجد - لا الشعر في حد ذاته.

ولا أودّ أن أستشهد بما صحّ عنه ﷺ من كلام يشبه الرجز
كقوله عندما جرحته إصبعة:

ما أنت إلا إصبغ دميت وفي سبيل الله ما لقيت
أو كقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ذلك أنني لا أعدّ هذا شعراً وأذهب مذهب الذين يعتبرونه «من
المنثور الذي يوافق المنظوم، وإن لم يتعمّد به قائله المنظوم ومثل هذا من
كلام الناس كثير يأخذه الوزن»^(١).

في مواجهة هذه الآثار الصحيحة، وكلها تشيد بالشعر على نحو
أو آخر، صحّ خبر عن الرسول ﷺ يوحى ظاهره بدم الشعر، ولهذا تضعه
كتب الحديث أحياناً في «فصل ذم الشعر»، وإن كان المحققون من العلماء
رجّحوا أن المذموم في الحديث غلبة الشعر على المرء لا الشعر نفسه. قال
ﷺ «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه»^(٢) خير له من أن يمتلىء
شعراً»^(٣) [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي]. يعلق المحدّث
المحقّق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني على هذا الحديث فيقول «المراد
أن يكون الشعر غالباً عليه بحيث يشغله عن القرآن والحديث وغيرهما من

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ -

١٩٦٥م)، الجزء الخامس، ص ٢٨٣.

(٢) يرى الجوف أي يفسده ويمرضه.

(٣) تضيف بعض الروايات شعراً «هجيئ به». ولكن صياغة الحديث لا يعتدون بهذه
الزيادة.

العلوم الدينية^(١). ويعلق عليه القرطبي فيقول:

أحسن ما قيل في تأويله: إن الذي غلب عليه الشعر وامتلاً صدره به دون علم سواه ولا شيء من الذكر، ممن يخوض به في الباطل ويسلك مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللفظ والهذر والغية وقبيح القول، ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنيئة، لحكم العادة الأدبية^(٢).

وصح عنه عليه السلام حديث مشابه مع زيادة لم ترد في الأول. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (بينما نحن نسير مع رسول الله عليه السلام بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله عليه السلام «خذوا الشيطان» أو «أمسكوا الشيطان» لأن يمتلىء جوف رجل قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً) [أخرجه مسلم والنسائي]. ويعلق القرطبي على هذا الحديث فيقول:

قال علماؤنا وإنما فعل النبي عليه السلام هذا مع الشاعر لما علم من حاله - فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عُرف من حاله أنه اتخذ الشعر طريقاً للكسب فيفرط في المدح إذا أُعطي وفي الهجو والذم إذا مُنِع فيؤدي الناس في أعراضهم وأموالهم^(٣).

هذه، إذن، سنته عليه السلام في الشعر يلخصها مصطفى صادق الرافعي فيقول: «يحب هذا الشعر، ويستنشده، ويثيب عليه، ويمدحه متى

(١) محمد ناصر الدين الألباني، مختصر صحيح مسلم، (بيروت: المكتب الإسلامي،

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م)، ص ١٢٠٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الشعراء.

(٣) المرجع السابق نفسه.

كان في حقه ولم يعدل به إلى ضلالة أو معصية^(١). والغريب أنه برغم هذا الموقف الجلي الذي تعكسه الأحاديث الصحيحة فقد تبنى عدد من المستشرقين فكرة مؤداها أن النبي ﷺ كان طيلة حياته على عداء مستحكم مع الشعر والشعراء^(٢). ولم تكن هذه الفكرة موضوعية بل كانت مبنية على اعتقادهم أن القرآن من «نظم» محمد ﷺ، وأنه كان بالتالي يشعر بعداء شديد نحو «منافسيه» من الشعراء. إن هذا الرأي أوهى من أن نقف عنده طويلاً. ويكفي أن نذكر ما قاله الرافعي من أنه لو لم يكن للرسول موقف إيجابي من الشعر «لماتت الرواية بعد الإسلام»^(٣).

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م)، الطبعة التاسعة، ص ٢١٣.

(٢) انظر، على سبيل المثال، محمد مصطفى هدارة «موقف مرغليوث من الشعر العربي» في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، (الرياض: مكتب الترية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)، ص ص ٣٩٥ - ٤٣٨. وانظر، على سبيل المثال أيضاً:

J.M. Rodwell, *The Koran*, (London: Everyman's Library, 1978), p. 111.

(٣) الرافعي، إعجاز القرآن، ص ٢١٣.

الشعر والشعراء في أقوال السلف الصالح

لا يتسع المجال هنا إلا لخطفة عابرة فالآثار الواردة في هذا الشأن تحتاج إلى مجلد أو مجلدات. وحسب من يريد الاستزادة أن يرجع إلى الفصل الضخم الذي عقده صاحب العقد الفريد للشعر وأسماء «في فضائل الشعر ومخارجه»^(١). يقول الجاحظ: «وجدنا الشعر، من القصيد والرجز، قد سمعه النبي ﷺ فاستحسنه، وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعراً قليلاً كان أو كثيراً واستمعوا واستنشدوا»^(٢). ويقول القرطبي: «إذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا؟». ويضيف «ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أهل النهي». ويروي أنه «ليس من أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر أو تمثل به أو سمعه»^(٣).

ينسب الجاحظ إلى العائشي قوله «كان عمر بن الخطاب، رحمه

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، المجلد الخامس، ص ٣٩٥ - ٤٣٨.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت: محمد فائق الداية)، الطبعة الرابعة، الجزء الأول، ص ٢٨٧ - ٢٨٨. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الشعراء.

الله، أعلم الناس بالشعر»^(١). ويروى عن محمد بن سلام أنه قال: «كان عمر بن الخطاب لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر»^(٢). والأقوال المنسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنه في الشعر لا تكاد تحصى، وقصصه مع الشعراء تطول. ونُقل عن سعيد بن المسيب قوله: «كان أبو بكر شاعراً، وعمر شاعراً، وعلي أشعر الثلاثة»^(٣). وقد استقصى صاحب العقد الفريد في المبحث الذي أشرنا إليه عدداً كبيراً ممن قالوا الشعر من الصحابة والتابعين وأجلاء الفقهاء والقضاة.

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول، ص ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، المجلد الخامس، ص ٢٨٣. الروايات عن شاعرية سيدنا علي متواترة، بصرف النظر عن الزيادات المنسوبة إليه، أما سيدنا عمر فلم يحفظ له شعر، وأما سيدنا أبو بكر فقد نُسب إلى عائشة رضي الله عنها قولها «ما قال بيت شعر في جاهلية ولا إسلام» انظر الصنعاني، المصنف، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، الجزء الحادي عشر، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

موقف الإسلام من الشعر

أحسب أن من حقنا بعد هذه الجولة المباركة في آيات القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة وأقوال خيار الأمة أن نحدد موقف الإسلام من الشعر، فنقول، إن الموقف من الشعر يعتمد على طبيعة الشعر. الإسلام يُبيح الطيبات، ويحرم الخبائث، والشعر الطيب يدخل، دون جدل، في دائرة المباح، أما الشعر الخبيث فمرفوض مع بقية الخبائث. ولعل عبارة واحدة لا تلخص موقف الإسلام من الشعر بالدقة والوضوح اللذين يتجليان في العبارة المشهورة: «الشعر كلام فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام».

ارتاح الفقهاء والعلماء إلى هذه المقولة وأنسوا بها معياراً للحكم على الشعر. ومن هنا نرى الجملة تتكرر، المرة تلو المرة، كلما دار بحث فقهي في الشعر. نجدّها على سبيل المثال في الكشف للزمخشري^(١). ونجدّها في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي^(٢). ونجدّها في أقوال المفتشرين المعاصرين، كما نجدّها في أقوال أسلافهم. يقول محمد سيد

(١) تفسير سورة الشعراء.

(٢) تفسير سورة الشعراء.

طنطاوي في التفسير الوسيط «إن الشعر ذاته كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح»^(١). ونجد صدى منها في تفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور «أن للشعر حالتين: حالة مذبذومة وحالة مأذونة»^(٢). ونجدها واردة بحسم ما بعده حسم في أقوال مفسر معاصر يعتبر الأمر منتهياً بها «واعلم أن التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه أن الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح»^(٣).

لا يبدو أن أحداً يعرف على وجه التحديد من صاحب هذه المقولة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تراثنا الشعري. هناك رواية ترفعها إلى النبي ﷺ، إلا أن هذه الرواية موضع نظر ولا يصح الركون إليها^(٤). وهناك روايات تنسب العبارة إلى غيره ﷺ^(٥). والمتعارف المشهور أنها للإمام الشافعي، رحمه الله، فإن لم يكن هو أول من قالها فلعله أول من توسع في شرحها وتفصيلها.

وردت العبارة في مبحث فقهي طريف للإمام الشافعي ناقش فيه موضوع «هل تقبل شهادة الشعراء أمام القضاء؟». وقد بدأ الشافعي فأوضح الموقف العام من الشعر: «الشعر كلام حسنه كحسن الكلام

(١) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (القاهرة: مطبعة السعادة،

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م)، الطبعة الثالثة، الجزء الثامن عشر، ص ٣٨١.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م)، الجزء التاسع عشر، ص ٢١١.

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، الجزء السادس، ص ٣٦٠.

(٤) انظر المناوي، فيض القدس: شرح الجامع الصغير، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م)، المجلد الرابع، ص ١٧٥.

(٥) ينسبها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، إلى ابن سيرين، وينسبها البغوي في معالم التزيل، إلى عائشة رضي الله عنها.

وقيحه كفيح الكلام. غير أنه كلام باق سائر فذلك فضله على الكلام».

ثم تكلم على الشعراء المعتدلين في قدحهم ومدحهم: «فمن كان من الشعراء لا يُعرف بنقص المسلمين ولا أذاهم والإكثار من ذلك، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب فلا ترد شهادته». ثم يتكلم على الهجائيين المفرطين في البذاءة وثلثم الأعراض، وهؤلاء الشعراء نكبة الشعر العربي الأولى عبر تاريخه ونحمد الله على أنهم ينقضون تدريجياً، وعن المدّاحين المبالغين في المدح، وهؤلاء الشعراء نكبة الشعر العربي الثانية وهم يتناقصون بعض الشيء دون أن تبدو منهم أية نزعة نحو الانقراض، فيقول:

ومن أكثر الوقعة في الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك
ظاهراً كثيراً مستعلناً. وإذا رضي مدح الناس بما ليس فيهم حتى يكون
ذلك ظاهراً مستعلناً كذباً محضاً، رُدّت شهادته، وإن كان يمدح
فيصدق ويحسن الصدق أو يفرط فيه بالأمر الذي لا يحض أن يكون
كذباً لم ترد شهادته.

وماذا عن الشعراء المشيّبين بنساء الآخرين، أزواجاً أو بناتٍ أو أمهات، المولعين بفضيحتهن وهم النكبة الثالثة في الشعر العربي؟ يقول الإمام:

ومن شَبَّ بامرأة بعينها، ليست ممن يحلّ له وطؤها حين شب، فأكثر
فيها وشهرها وشهر مثلها بما يُشَبَّ، وإن لم يكن زنى، رُدّت شهادته.

وماذا عن المتفزلين دون فضائح، وهم، على أية حال، ليسوا من نكبات الشعر العربي؟ يقول الشافعي: «ومن شَبَّ فلم يُسمَّ أحداً لم تُردَّ شهادته لأنه يمكن أن يشَبَّ بامرأته أو جاريته»^(١).

(١) الشافعي، كتاب الأم، (بومي: أبناء مولوي محمد بن غلام رسول السورتني)، الجزء السادس، ص ٢١٢. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

أحسب أن هذه الصياغة الدقيقة الرقيقة، وقد جاءت دقتها من فقه الإمام ورقتها من شاعريته، تصلح معياراً للتفرقة حتى في أيامنا هذه بين ما يستحسنه الشرع وما لا يستحسنه من شعر.

يمكننا القول، إذن، إن كل شعر لا يرفضه الإسلام هو، في نهاية المطاف، شعر إسلامي. إلا أنه كانت هناك دائماً فئة من الناس تودّ حصر دائرة الشعر الإسلامي في شعر الجهاد والدعوة. ونحن نُسَلِّم أن لشعر الجهاد والدعوة من نبل المقصد وسمو الغاية ما ليس لغيره. إلا أن نبل المقصد وسمو الغاية لا يضمنان روعة الشعر. على شعر الجهاد والدعوة أن ينجح في امتحان الفن شأنه شأن غيره من ضروب الشعر. بل إن على شعر الجهاد أن يجتاز امتحاناً ثانياً هو امتحان الفعالية. لا بدّ لشعر الجهاد أن يستنهض همم المجاهدين ويشط عزائم المناوئين، أن يكون وقعه على الأعداء «كنضح النبل» كما تقول الجملة النبوية الخالدة. أما شعر الجهاد الذي لا يحرك مجاهداً ولا يرعب عدوّاً، فيبقى لصاحبه ثواب نواياه، يعلمها العليم الذي لا تخفى عليه خافية، ويبقى لنا جماله، إن كان من الشعر الجميل.

إن تضيق دائرة الشعر الإسلامي، حتى يصبح مقصوراً على موضوعات محدّدة بعينها لا يتجاوزها تضيق يتنافى مع الفهم الصحيح لروح الإسلام وموقفه من الفن عامة، ومن الشعر خاصة، وفي هذا يقول سيد قطب:

حسب الشعر أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ليكون شعراً أو فتاً يرضاه الإسلام. وليس من الضروري أن يكون دفاعاً ولا دفعاً؛ ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيداً

له أو لأيام الإسلام ورجاله^(١).

وفي الموضوع ذاته، يتحدث محمد قطب فيقول:

قد يتحدث لنا الفنان عن البرعم النابض الذي ينبثق من ضمير الحياة. وقد يتحدث عن الجبل الشامخ الأشم. قد يتحدث عن نبتة وحيدة في الصحراء. قد يتحدث عن الليلة القمرية. قد يتحدث عن طفلة شريفة. قد يتحدث عن مواقع البشرية. قد يتحدث عن ضربة من ضربات القدر. قد يتحدث عن صراع الناس في الأرض. قد يتحدث عن بطل أسطوري، قد يتحدث عن ذلك كله فيكون فنه إسلامياً إذا ما تلقاه في حسته بتصور الإسلام الصحيح وعبر عنه بروح ذلك الشعور^(٢).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٢٢.

(٢) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ص ١١٩ - ١٢٠.

سورة الشعراء مكان النزول

لمعرفة كون السورة مكية أو مدنية من الفائدة ما جعلها من أولويات الباحثين في الدراسات القرآنية، سواء كانوا من المفسرين أو من المهتمين بعلوم القرآن عامة^(١). إن معرفة مكان النزول تضع أيدينا على ظروف النزول والملابسات التي تحيط به. يقول السيوطي، رحمه الله، «هل من عجب إذا حرم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن جهل أسباب النزول؟». ويقول الواحدي، رحمه الله، «لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»^(٢). ونحن، دون أن نذهب هذا المدى كله نكتفي بالقول مع بنت الشاطيء إن أسباب النزول «لا تعدو أن تكون قرائن مما حول النص»^(٣). ولكننا نضيف أن القرائن، أية قرائن، كثيراً ما تكون نوراً ساطعاً يضيء الدرب إلى الحقيقة، أية حقيقة.

(١) انظر، على سبيل المثال، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، وانظر، على سبيل المثال، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (بيروت: دار إحياء العلوم ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م)، الطبعة الأولى.

(٢) انظر العبارتين في صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧١ م)، الطبعة العاشرة، ص ١٣٠.

(٣) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)، التفسير البياني للقرآن الكريم، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢ م)، الجزء الأول، ص ٢٣.

ولمعرفة مكان النزول في سورة الشعراء أهمية حاسمة في تفسيرها. كان كل الشعراء المعروفين في مكة كفّاراً فإذا كانت الآيات مكية جاز لنا أن نستنتج أن الذين استمعوا إليها انصرف تفكيرهم إلى هؤلاء الشعراء واعتبروهم المقصودين بالآيات. أما بعد الهجرة فقد كان كل من حول الرسول من الشعراء مؤمنين. فإذا كانت الآيات مدنية ساغ لنا أن نقول إنها نزلت في الشعراء عامة دون حصرهم في الكفار. فأين كان مكان النزول؟

يجمع العلماء أن سورة الشعراء مكية، أنزلت في الفترة المكية الوسطى، أي قبل هجرة النبي ﷺ بقرابة ست أو سبع سنوات^(١). إلا أن طائفة من العلماء ذهبوا إلى أن الآيات الأربع الكريمة التي تتحدث عن الشعراء في آخر السورة نزلت في المدينة. ويعلق محمد أسد على ما ذهب إليه هؤلاء العلماء فيقول: «إن كل الأدلة المتوفرة تظهر أن السورة نزلت بأكملها في مكة»^(٢). ويدلل الطباطبائي على نزول السورة بأكملها في مكة فيقول:

وقولهم إنه شاعر مما كانوا يكررونه بألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة للحق، وهذا مما يؤيد نزول الآيات بمكة خلافاً لما قيل إنها نزلت بالمدينة.

ويضيف: «ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكية سنين على معنى النقص ثم تمامها بالمدينة»^(٣).

(١) Mohammad Asad, *The Message of the Quran*, (Gibraltar: Dar Al Andalus, 1980), p. 560.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، المجلد الخامس عشر، تفسير سورة الشعراء.

وينقل القاسمي، رحمه الله، في محاسن التأويل عن المدائني أن السورة بأكملها مكية^(١). ويورد عرفان شهيد عدة قرائن على نزول الآيات بمكة أهمها أنه يصعب أن نتصور تأخر القرآن الكريم في الرد على فرية قريش إلى ما بعد الهجرة^(٢). وفي الموضوع نفسه يقول محمد عزة دروزة معلقاً على الآيات التي تتحدث عن الشعراء:

المتبادر أنها نزلت في صدر الردّ على نسبة الشاعرية إلى النبي ﷺ ونزول الشياطين عليه بالقرآن على ما كانت عليه عقيدة العرب وأنها متصلة بالآيات السابقة التي لا خلاف على مكيتها^(٣).

يطمئن القلب مما أسلفناه أن سورة الشعراء بأكملها نزلت في مكة^(٤). نقل عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قوله: (قدم علينا رسول الله ﷺ وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر. قيل له «وأنت يا أبا حمزة؟» قال: «وأنا»^(٥)). ولنا أن نتصور الهلع الشديد الذي كان

(١) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، الجزء الثالث عشر، تفسير سورة الشعراء.

(٢) انظر: Irfan Shahid «A Contribution to Koranic Exegesis», in *Arabic and Islamic Studies In Honor of Hamilton A.R. Gibb* edit. G. Makdisi, (Leiden: 1965), pp. 563-580.

(٣) انظر محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م)، الجزء الثالث، تفسير سورة الشعراء.

(٤) تقتضي الموضوعية أن نذكر أن كلاً من عرفان شهيد ومحمد عزة دروزة يذهب إلى القول إن الآيات الثلاث الأولى التي تتحدث عن الشعراء أنزلت في مكة وإن آية الاستثناء أنزلت في المدينة، فإذا صح هذا القول فإنه لا يغير ما ذهبنا إليه في المتن، فمن المجمع عليه أن الاستثناء يتحدث عن الشعراء المؤمنين، ولا يتغير المعنى بتحقيق نزوله في مكة أو المدينة.

(٥) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، المجلد الخامس، ص ٢٨٣.

سيعم كل بيت من بيوت الأنصار لو كان نزول الآيات في المدينة، هذا الهلع الذي لا تذكر لنا المراجع التاريخية والأدبية أنه قد حدث.

سياق السورة

يصعب، إن لم يستحل، فهم آية أو آيات من القرآن المجيد مفصولة عن سياقها، وفي معزل عن التسلسل المنطقي الفريد الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ من إعجاز القرآن. لكل سورة في القرآن موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص^(١). وتبين المقصود بأي جزء من السورة يتطلب الإلمام بهذا المحور الذي يشد السورة من أولها إلى آخرها. ولعله من المؤسف أن قلة من المفسرين هي التي اهتمت اهتماماً خاصاً بتبيين الوحدة المنطقية التي تجمع بين السور. وفي هذا المجال لا بد أن نشير بالتقدير إلى جهود الفخر الرازي، رحمه الله بين السابقين من المفسرين، وجهود سيد قطب، رحمه الله، بين المحدثين.

يلخص الفخر الرازي سياق سورة الشعراء على هذا النحو:

إنه تعالى ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسول الله ﷺ من الدلائل العقلية ومن أخبار الأنبياء المتقدمين، ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام، ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمداً ﷺ بالكاهن وتارة بالشاعر، ثم إنه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن (أولاً)، ثم بينه وبين الشاعر (ثانياً)^(٢).

ويلخص سيد قطب السياق فيذكر أنه يتكوّن من جسم ومقدمة

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الأول، ص ٢٨.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، تفسير سورة الشعراء.

وتعقيب. المقدمة تثبيت وتطمين للنبي ﷺ وتوعد لكفار قريش الذين كذبوه. والجسم هو قصص الأنبياء من المتقدمين، تحيي تسلية للنبي ﷺ وتأكيذاً لرسالته. ثم يجيء التعقيب الذي:

يتحدث عن القرآن فيؤكد أنه تنزيل من رب العالمين... إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة؛ ويؤمنون أنه سحر أو شعر... وما تنزل الشياطين بهذا القرآن كما تنزل بالأخبار على الكهان، وما هو كذلك بشعر^(١).

يتضح مما سبق أن الحديث عن الشعراء في السورة الكريمة جاء وهدفه نفي أن يكون النبي ﷺ شاعراً، وأن يكون ما قد أنزل عليه من وحي الشياطين. ولعله من المفيد لفهم الآيات الأربع الكريمة على الوجه الأكمل أن ثبت الجزء الأخير من سورة الشعراء وهو الجزء الذي يتصل اتصالاً مباشراً بالآيات موضع البحث:

﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ • وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ • إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَفْزُولُونَ • فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ • وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ • وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ • وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ • الَّذِي يَرْيَكَ حِينَ تَقُومُ • وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ • إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ • تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ • يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ • وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ • وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ • إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، ص ٢٥٨٣.

من هم الشعراء الذين يجمعهم الغاؤون؟

وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١﴾

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢١٠ - ٢٢٧.

من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون؟

نقلت كتب التفسير عدة روايات في نزول الآيات التي تتحدث عن الشعراء. فقد وردت رواية تقول: (كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فقام^(١) من الناس ولهذا فقام من الناس فأُنزل الله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٢). وهذه الرواية كما نرى لا تذكر لنا شيئاً يشفي القليل عن هؤلاء الشعراء، فلا تذكر أسماءهم، ولا ديانتهم، ولا سبب الهجاء ولا موضوعه ولا مكانه.

وهناك رواية أخرى أكثر تفصيلاً تقول: (تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهم غواة من بني قومه فأُنزل الله تعالى الآيات). ويعلق العلامة الألوسي، رحمه الله، مع هذه الرواية بأدب جَمّ فيقول: «وفي القلب من صحة الخبر شيء»^(٣).

وهناك رواية تذهب إلى أنها نزلت في شعراء الأنصار. تقول

(١) قام أي جماعة.

(٢) انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الشعراء.

(٣) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تفسير سورة الشعراء.

الرواية إنه لما نزلت الآيات (جاء حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون فقالوا: «قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء» فتلا النبي ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾^(١). وعلى هذه الرواية يعلق ابن كثير تعليقاً حاسماً:

ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر. ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم^(٢).

بقيت الرواية التي يطعن إلى صحتها القلب، قلبي أنا على أية حال: (قال عبدالرحمن بن زيد قال رجل لأبي «يا أبا أسامة، هل رأيت قول الله جلّ ثناؤه ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾؟، فقال: «إنما هذا لشعراء المشركين وليس لشعراء المؤمنين. ألا ترى أنه يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ فقال «فرجت عني يا أبا أسامة!»^(٣). أقول: وأنا والله يا أبا أسامة فرجت عني!

تذهب معظم كتب التفسير إلى أن الآيات نزلت في شعراء الكفار، وتذكر هذا إما كرواية تضمها إلى الروايات التي أشرنا إليها أو كسبب وحيد للنزول. فقد أشار الزمخشري في الكشاف إلى «شعراء المشركين». كما وردت الإشارة نفسها في التفسير المنسوب لابن عباس

(١) انظر الطبري، مجمع البيان، تفسير سورة الشعراء.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الشعراء.

(٣) انظر الطبري، مجمع البيان، تفسير سورة الشعراء.

رضي الله عنه المستمى تنوير المقباس. وقال النيسابوري في تفسير غرائب القرآن: «إنهم شعراء قريش» ويقول الطبري في مجمع البيان هم «شعراء الكفار». ويروي البغوي في معالم التنزيل أنهم «شعراء الكفار». ويقول ابن جزى في تفسيره: «شعراء كفار قريش الذين كانوا يؤذون المسلمين بأشعارهم». ويقول الشوكاني في فتح القدير: «المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبي ﷺ». ويقول الخازن في لباب التأويل وكأن الأمر لا يحتمل أي جدال: «قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول». ويقول حسنين محمد مخلوف في صفوة البيان لمعاني القرآن: «شعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ يقولون الكذب والباطل». ويقول الألوسي في روح المعاني: «والظاهر من السياق أنها نزلت للرد على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا»^(١).

فمن هم هؤلاء الشعراء الذين قالت كتب التفسير إنهم «تكلموا بالكذب والباطل»؟ وإنه «اجتمع إليهم غواة قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون محمداً ﷺ ويرددون عنهم قولهم؟». من هم هؤلاء الشعراء الذين ارتكبوا الجريمة العظمى عندما زعموا «نحن نقول مثلاً يقول محمد»^(٢)؟ من هم هؤلاء الأشخاص الذين لم يكونوا شعراء فحسب ولا كفاراً فحسب، بل جندوا شعرهم تجنيداً تاماً في خدمة كفرهم؟ من هم هؤلاء الشعراء الذين لم يكتفوا بحرب اللسان - وما أشد فعاليتهما في المجتمع العربي الذي عاشوا فيه - بل أضافوا إليها حرب السلاح وحرب المؤامرات؟

(١) راجع تفسير سورة الشعراء في كل من الكتب المشار إليها في المتن.

(٢) راجع الخازن، لباب التأويل، تفسير سورة الشعراء.

كانوا مجموعة غريبة من البشر حرّكها، أول ما حرّكها، الحسد، حسد صاحب الرسالة ﷺ، فانطبق عليها قول الشاعر:

كل العداوات قد ترجى مودّتها إلا عداوة من عاداك من حسد
كان منهم من حسده على النبوة ذاتها. ومنهم من حسده على مجد النبوة^(١). ومنهم من أعمى الجشع بصيرته. كانوا مجموعة من المغامرين يجمعهم هدف واحد هو محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم. فمن هم؟!

يتصدّر القائمة، شعراً وخبثاً على حدّ سواء عبد الله بن الزنبري، الذي وصف بأنه «أشعر قريش قاطبة». وكان من المؤذنين لرسول الله ﷺ قام يوماً فأخذ فرثاً وروثاً فلطّخ به وجه النبي ﷺ^(٢). وقد كان حادّ العداوة للمسلمين، يتوعدهم بالجولة القادمة إن انتصروا، ويشمت فيهم إن انكسروا، ويهجوهم في كل الأحوال.

قال يرثي قتلى بدر من المشركين:

ماذا على بدرٍ وماذا حوله من فتية يبيض الوجوه كرام^(٣)
وقال قصيدته الشامتة المشهورة بعد موقعة أحد:

يا غراب البين أسمعت فقلّ إنما تنطقُ شيئاً قد فُعِلْ
كل بؤسٍ ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكلّ

- (١) انظر حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ص ٢٧.
- (٢) انظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨ م)، الطبعة الثانية، الجزء التاسع، ص ٧٠٦.
- (٣) ابن هشام، السيرة النبوية، (الرياض: وزارة المعارف)، الجزء الثاني، ص ٢٦٥. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

من هم الشعراء الذين يتجمع الغاؤون؟

ليت أشياخي ببدر شهدوا حجر الخرج من وقع الأسل^(١)
وقال يوم الخندق:

حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا للموت كل مجرب قضاب^(٢)
شهرأً وعشرأً قاهرين محمداً وصحابه في الحرب خير صحاب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سقب وذئب^(٣)
وهي القصيدة التي ردّ عليها كعب بن مالك، رضي الله عنه،
بقصيدته ذات البيت الطائر:

جاءت سخينة كي تغالب ربها وليُغلبن مغالبُ الغلاب
ومن هؤلاء الشعراء ضرار بن الخطاب الفهري. وقد قدّمه بعض
رواة الشعر على ابن الزبير. وكان شديد الطموح، فاتكأ، «جمع من
حلفاء قريش ومراق كنانة وكان يأكل بهم ويغير ويسبي ويأخذ المال»^(٤).
وكان من أشجع فرسان قريش وأشدّهم على المسلمين في القتال.
قال في بدر:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليهم غداً والدر فيه بصائر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا فإنّا رجالٌ بعدهم سنغادر^(٥)

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، (الرياض: وزارة المعارف)،
السفر الأول، ص ٣٣٧ - ٣٣٨. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٢) القضاب: السيف.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ٢٦٥.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٥١.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ٢٦٣.

وقال في يوم أحد:

بأخذٍ وأسيافنا فيهم تلهب كاللهب المؤهج
غداة لقيناكم في الحديد كأسد البراح فلم تعنج^(١)

وقال يصف بلاءه في أحد:

قد عودوا كل يوم أن تكون لهم ربح القتال وأسلاب الذين لقوا
خيرت نفسي على ما كان من رجلٍ منها، وأيقنت أن المجد مستبق
أكهرت مهري حتى خاض غمرتهم وبله من نجيع عانك علق^(٢)

وقد كان من فرسان معركة الخندق وفيها يقول:

كانهم إذا صالوا وصلنا بباب الخندقين مصافحونا
أناس لا ترى فيهم رشيداً وقد قالوا «ألسنا راشدين؟»
نراوحهم ونغدو كل يومٍ عليهم في السلاح مدججينا^(٣)

ومن هؤلاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ومن غريب أمر هذا الرجل أنه كان ابن عم رسول الله ﷺ، وأخاه من الرضاعة، فقد أرضعته حليلة أياماً، وكان تربه ورفيقه. إلا أنه عندما بعث رسول الله ﷺ حمده وعاداه معاداة لم يعاذا أحد قط وهجا أصحابه^(٤)، وقد سقط أكثر شعره في الجاهلية فلم يصل لنا منه إلا القليل.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثالث، ص ٧٢، وتنج أي تكف.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٧٥ - ٧٦ - والعانك هو الأحمر.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ١٥٦.

(٤) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، (الرياض: الحرس الوطني)، ص ١٣٨. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

قال يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أبوك أبو سوء وخالك مثله ولست بخير من أهلك وخالك
وإن أحق الناس ألا تلومه على اللؤم من ألفى أباه كذلكاً^(١)

وقال يشمت بالمسلمين يوم أحد:

شقيمت بها وغيركم أهل ذكرها فوارس من أبناء فهر بن مالك
حسبتم جلاد البيض حول بيوتكم كأخذكم في العير أرطال إنك^(٢)

وإذا كان الشعراء الثلاثة السابقون مدفوعين في عداثهم
للسلطان عليه السلام بالحسد والغيرة، فإن الرابع، أبو عزة الجمحي، واسمه عمرو
بن عبدالله، لم يكن مدفوعاً إلا بدوافع الطمع. كان فقيراً ذا عيال، وقد
أسره المسلمون يوم بدر فذكر حاجته للسلطان عليه السلام واستعطفه فأطلقه على
ألا يعين عليه بشعره وأخذ عليه بذلك موثقاً. إلا أن لؤمه غلب عليه فما
لبث أن قال:

ألا أبلغا عني النبي محمداً بأنك حق والمليك حميد
وأنت امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى عليك من الله الكريم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءةً لها درجات سهلة وصعود
وإنك من حاربتك لمحارب شقي... ومن سألته لسعيد
ولكن إذا ذكرتُ بدرأ وأهلها تأؤب ما بي حسرة وتعود^(٣)

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٩ - الآنك هو القصدير، يشير إلى ما سبق أن غنمه
المسلمون من قريش وقد عاتبه أبو سفيان بن صخر فقال «لم جعلتها أنك؟ إن كانت
لفضة يضاء جيدة».

(٣) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٥٢ -

فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية الجمحي إلى الخروج فقال له «إن محمداً من عليّ وعاهدته ألا أعين عليه». فما زال به حتى أغراه بالمال فخرج في بني كنانة يحترضهم:

أيا بني عبد مناة الرزّام^(١) أنتم حُماة وأبوكم حام
لا تعدوني نصركم بعد العام لا تُسلموني لا يحلّ إسلام^(٢)

ومن هؤلاء الشعراء هبيرة بن أبي وهب. وكان من رجال قريش المعدودين. كما كان «شديد العداوة لله ورسوله»^(٣).

قال يوم أحد:

قالت كنانة «أتى تذهبون بنا؟» قلنا «النخيل» فأتموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجزّ^(٤) من أحد هابت معدّ فقلنا «نحن نأتيها»
هابوا ضرباً وطعنأ صادقاً خذماً^(٥) مما يرون وقد ضمت قواصبيها^(٦)

وقال هبيرة يعتذر عن فراره يوم الخندق:

لعمري ما وليت ظهري محمداً وأضحابه جبنأ ولا خيفة القتل
ولكنني قلبت أمري فلم أجد لسيفي غناءً إن ضربت ولا نبلي

(١) الرزّام جمع رازم، وهو الرجل الشجاع الذي يثبت مكانه في الحرب.
(٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٥٧.

(٤) الجزّ: أصل الجبل.

(٥) الخذم: المذلّ.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثالث، ص ٦٤.

من هم الشعراء الذين يتبعهم الفاروق؟

وقفت فلماً لم أجد لي مقدماً صدت كضرغامٍ هزبر أبي شبل^(١)
وقال يرثي عمرو بن ود الذي قتله سيدنا علي بن أبي طالب في
معركة الخندق:

لقد علمت علياً لؤي بن غالب لفارسها عمرو إذا ناب نائب
فيا لهف نفسي أن عمراً تركته يثرب.. لا زالت هناك المصائب^(٢)

ومن هؤلاء الشعراء الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، أخو
أبو جهل وابن عم خالد بن الوليد رضي الله عنه. وكان الحارث قد شهد
بدرًا مع المشركين وفر عند مقتل أخيه، فعبر بفراره فقال ما عدّه النقاد من
أحسن ما قيل في الاعتذار:

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسي بأشقر مُزبدٍ
فعلمت أنني أن أقاتل واحداً أقتل ولا يكي عدوي مشهدي
ففررت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مُرصدٍ^(٣)
وينسب إليه في بدر قوله:

فإن يك قوم قد مضوا لسبيلهم وخير المنايا ما يكون من القتل
فلا تفرحوا أن تقتلوهم فقتلهم لكم كائنٌ حُبلاً مقيماً على حبل
فإنكم لن تبرحوا بعد قتلهم شتياً هواكم غير مجتمعي الشمل^(٤)
كما ينسب إليه قوله في رثاء أخيه أبي جهل:

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٧.

(٣) جواد علي، المفصل، الجزء التاسع، ص ٧١٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ٢٦٣.

فإن يك قومٌ صادفوا منك دولة فلا بُدَّ للأيام من دول الدهر
فقد كنت في صرف الزمان الذي مضى تربهم هواناً منك ذا سبل وُعر^(١)

ومن هؤلاء الشعراء أمية بن أبي الصلت الثقفي. وقد كان أمية
هذا شخصية بالغة الغرابة تكتنف حياته الأساطير منذ يوم ميلاده حتى يوم
وفاته. كان قد نظر في الكتب ولبس المسوح وتعبّد وحرم الخمر ونجّس
الأوثان. وكان المؤمل من رجل هذا شأنه أن يكون من أوائل المؤمنين
بالنبي ﷺ. إلا أن الشقاوة غلبت عليه إذ إنه كان يطمع أن يكون هو
النبي، فحسد النبي وعادى المسلمين^(٢).

قال يرثي قتلى المشركين في بدر:

ألاً بكيت على الكرام بني الكرام أولى المادخ
كبكا الحمام على فروع الأيك في الغصن الجوانخ
ويحرّض على الرسول ﷺ:

لله درّ بني عليّ ايم منهم وناكخ
إن لم يغيروا غارة شعواء تحجر كل نابخ
مرداً على جرّد إلى أسد مكالبة كوالخ^(٣)

ومن هؤلاء الشعراء عبدالله بن خطّل. وقد بلغ من مقتته
للنبي ﷺ أن هجاه وأمر قنيتين له أن يتغنيا بهذا الهجاء^(٤).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ٢٦٣.

(٢) جواد علي، المفصل، الجزء التاسع، ص ٧٥٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ٢٧٢.

(٤) جواد علي، المفصل، الجزء التاسع.

من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟

ویدخل فی حکم هؤلاء الشعراء، وإن لم یکن فی الأصل منهم،
کعب بن زهیر. لم یرد اسم کعب فی کتب التفسیر مع بقية الشعراء
الذین أشرنا إلیهم ولم یعرف له شعر فی هجاء الرسول أو المسلمین قبل
قصته المشهورة حین أسلم أخوه بجیر فکتب له غاضباً ومعاتباً:

ألا أبلغیا عني بُجیراً رسالة فهل لك فیما قلتُ ویحک هل لکا؟
سفاک بها المأمون کأساً روبةً فأنهک المأمون منها وعلکا
ففارقت أسباب الهدی واتبعته علی أي شيء ویب غیرک ذلکا؟
علی خلق لم تلق أما ولا أباً علیہ ولم تعرف علیہ أخاً لکا^(١)

تقول الروایة أن بجیر أطلع الرسول ﷺ علی الأبیات فقال «من
لقي منکم کعب بن زهیر فلیقتله»^(٢).

لیس بالإمكان أن تكون هذه القائمة عن الشعراء كاملة فمن
«الشعراء الذین يتبعهم الغاؤون» من أهمل التاريخ ذکره فلم یصلنا. ومن
البديهي ألا تعنی کتب التاريخ والأدب إلا بالشعراء المُجیدین دون
غیرهم. كما أن اسم النضر بن الحارث لم یدخل هذه القائمة، رغم أنه
کان أشدَّ علی النبی ﷺ من أي شاعر من هؤلاء، ورغم أن بعض کتب
التفسیر تسرد اسمه مع الشعراء الذین تحدثنا عنهم، لأنی لم أجد له شعراً
فی المراجع، ولم أجد من اعتبره شاعراً.

(١) جمال الدین محمد بن هشام الأنصاري، شرح قصيدة کعب بن زهیر فی مدح
سیدنا رسول الله ﷺ، (دمشق: الوكالة العامة للتوزيع، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م)،
ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٥.

من هم الغاؤون الذين يتبعون الشعراء؟

هذا عن الشعراء، فماذا عن الغاوين الذين يتبعونهم، أو يتبعونهم إذا قرأنا الآية كما قرأها نافع^(١)؟، وردت في تفسير كلمة «الغاوين» عدة أقوال. فقد ورد أنهم الشياطين. وورد أنهم الرواة. وورد أنهم السفهاء. وورد أنهم الكفار. والكلمة تحمل هذه الوجوه كلها. إلا أن الوجه الذي نرجحه هو أن المقصود الشياطين - وهو القول المنسوب إلى قتادة ومجاهد وعكرمة^(٢). ونحن نرجح هذا المعنى مستندين إلى قرائن لغوية وقرائن تاريخية وأهم من هذه وتلك، قرائن مستمدة من الكتاب العزيز نفسه.

لنبدأ بالقرائن اللغوية. أورد القاموس المحيط في تفسير الغاوين ما يلي «الشياطين، أو من ضلّ من الناس، أو الذين يحبّون الشاعر إذا هجا قوماً، أو محبّوه لمدحه إياهم بما ليس فيهم»^(٣) فذكر الشياطين قبل بقية

(١) يقول ابن الجوزي «وقرأ نافع يتبعهم بسكون التاء، والوجهان حسنان يقال تبعث وتابعت، مثل حقرت واحتقرت». راجع ابن الجوزي، زاد المسير في علم الضمير، تفسير سورة الشعراء.

(٢) انظر الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الشعراء. ما نسب إلى عكرمة هو قوله «عصاة الجن» وهم الشياطين.

(٣) انظر الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح النير وأساس البلاغة، (بيروت: دار الكتب العربية، ١٣٩٩هـ. ١٩٧٩م)، الجزء الثالث، ص ٤٣٠.

المعاني المحتملة للكلمة. وجاء في لسان العرب «الغاؤون الشياطين، وقيل الغاؤون من الناس»^(١) فبدأ بدوره بالشياطين قبل القول الآخر. وجاء في لسان العرب أن غوى قد نجى بمعنى أغوى^(٢) - وبهذا يمكن أن نجى «الغاؤون» والمقصود بها «المغفون».

ومن القرائن اللغوية أن كلمة «تبع» ومشتقاتها قد تستخدم اصطلاحاً لتعبير عن علاقة بين الإنسان والجن. يقول لسان العرب: والتابعة الرئي من الجن، ألقوه الهاء للمبالغة أو لتثنية الأمر أو على إرادة الداهية. والتابعة جنية تتبع الإنسان. وفي الحديث: أول خبر قدم المدينة يعني من هجرة النبي ﷺ امرأة لها تابع من الجن، والتابع ههنا جنني يتبع المرأة ويحبها والتابعة جنية تتبع الرجل تحته. وقولهم معه تابعه أي من الجن^(٣).

وقد روى الجاحظ في هذا المجال عن بعض الأعراب: إنني امرؤ تابعني شيطانية آخيتُه عمري وقد آخنيه^(٤) ولو تعمقنا في تاريخ الشعر في شتى الحضارات لوجدنا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الشعر والسحر، وبالتالي بين الشعر والشياطين. نقول دائرة المعارف الإسلامية:

كان هناك، فيما يتعلق بالشعر، شيء غريب كما تدل التسمية. فالشاعر هو الإنسان ذو المعرفة الخارقة، الذي يعلم الأشياء الخافية عن

(١) ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر) المجلد الخامس عشر، ص ١٤١. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثامن، ص ٢٩.

(٤) الجاحظ، الحيوان، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٨٥ هـ. ١٩٦٦ م)، الطبعة الثانية، الجزء السادس، ص ١٨١.

عامة الناس، وكان يستلهم القوى الخفية، وله شيطان يأنس به، ويظهر ذلك أجلى ما يكون في فن الهجاء. وكان هذا الفن في نشأته هجوماً روحياً على الأعداء يؤازر الهجوم المادي بالسيوف والحراب ومحاولة لإهلاكهم بقوى خارقة... وهذه علاقة أخرى بين الشعر والسجع، لغة الكهان والسحرة^(١).

ويقول جواد علي:

وبين الشعر والسحر صلة، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر إلى أن الشعر فنٌّ من الفنون التي كان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس، إذا كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساهر يترك أثراً خطيراً في نفس سامعيه ولهذا عدّوا السحرة من جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء^(٢).

وفي الجاهلية كان العرب يربطون ربطاً وثيقاً بين الشعر والشياطين. «فهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه»^(٣). وقد سجّل لنا الموروث الشعبي الجاهلي قائمة طريفة بأسماء هؤلاء الشياطين. فاسم شيطان الأعشى (مسحل بن أوثانة). واسم شيطان امرئ القيس (لافظ بن لاحظ). واسم شيطان عبيد (هييد). واسم شيطان النابغة الذبياني (هاذر بن ماذر). كما تجلّى هذا الاعتقاد في الموروث الشعبي الشعري.

(١) دائرة المعارف الإسلامية (يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس) المجلد الثالث عشر، ص ٣٠٥ (لم يذكر مكان الطبعة ولا تاريخها).

(٢) جواد علي، الفصل، الجزء التاسع، ص ٦٩.

(٣) الجاحظ، الحيوان، المجلد السادس، ص ٢٥٥.

يقول شاعر:

إني وكل شاعر من البشرُ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرُ

ويقول آخر:

إني وإن كنت صغير السنُ وكان في العين نُبو عني
فإن شيطاني أميرُ الجنُ يذهب بي في الشعر كل فن

ويقول غيره:

ولي صاحب من بني الشيبان فحيناً أقول وحيناً هُوهُ^(١)

بل إن هناك من علّق على بيت عمرو بن كلثوم:

وقد هزّت كلاب الجن منا وشذبنا قتادة من يلينا

فرغم أن كلاب الجن هم الشعراء^(٢) - سامحه الله!

والقرآن الكريم لا يذكر لنا شيئاً عن شياطين الشعر ولكنه يذكر لنا الكثير عن شياطين الغواية والصلة الوثيقة التي تربطهم بالكفار. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣). ولما كان الشعراء الذين نبحتهم من رؤوس الكفر وقادته فليس لنا أن نستغرب أن تكون علاقتهم بالشياطين وطيدة راسخة. وجاء في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت في جاهليته، يتكلم على صاحب له من الجن. أما بعد

إيمانه فقد أعانه الله بروح القدس. ويا للفارق الشاسع بين الموقنين، وهو الفارق نفسه

بين الشعراء الكفار الذين يتبعهم الغاوون والشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

(٢) انظر جواد علي، المفصل، الجزء التاسع، ص ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

من هم الغاوين الذين يتبعون الشعراء؟

الْقَوْلِ غُزُورًا^(١). وقد روى الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنه أن «زخرف القول» هو «تزيين الباطل بالألسنة»^(٢). أوليس هذا ما كان يفعله الشعراء الذين يتبعهم الغاوين؟ يروي ابن هشام أنه لما أنزلت آية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^(٣). قال عبد الله بن الزبيري: «أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما السلام»، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته»^(٤). وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ مَبَّيَّتْ لَهُمْ مِنَّا الْخُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(٥). وجاء في سورة الأعراف ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٦). وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت^(٧)، أحد الشعراء موضوع حديثنا.

ولم ترد كلمة الغاوين في القرآن الكريم إلا وهي مرتبطة، على نحو أو آخر، بالشياطين. فالآية الكريمة التي استشهدنا بها قبل لحظة تذكر

(١) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

(٢) انظر الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الأعراف.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٩٨.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثاني، ص ٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ١٠١.

(٦) سورة الأعراف، الآية ١٧٥.

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الأعراف.

أن الشيطان تبع الذي انسلخ من الآيات فكان من الغاوين. وجاء في سورة الشعراء ما يقرن الغاوين بجنود إبليس:

﴿وَوُزِّزَتْ آلُجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ • وَقِيلَ لَهُمْ أَنْيَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ • مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ • فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ • وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾^(١). وجاء في سورة الحجر على لسان رب العزة والجلال موجهاً خطابه إلى إبليس ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٢). وجاء في سورة الصافات في سياق الجدال بين المشركين والذين أغوهم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ • فَحَقَّ قَوْلُ رَبَّنَا إِنَّآ لَدَاقِقُونَ • فَأَغْوَيْنَاكُمُ إِنَّآ كُنَّا غَاوِينَ﴾^(٣).

كل هذه القرائن تجعلنا مطمئنين إلى المعنى الذي رجحناه من تفسير الغاوين بالشياطين^(٤). وبهذا المعنى يزول، بحمد الله، الإشكال الذي أُلحِت إليه رواية نقلها الطبرسي في مجمع البيان «هل رأيتم شاعراً قط يتبعه أحد»^(٥)!

(١) سورة الشعراء، الآيات ٩١ - ٩٥.

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٢.

(٣) سورة الصافات، الآيات ٣٤ - ٣٢.

(٤) للمزيد من التفصيل في تفسير الغاوين بالشياطين راجع دراسة عرفان شهيد التي سبقت الإشارة إليها ودراسته الأخرى: Irfan Shahid «Another Contribution to Koranic Exegesis», «The Sura of the Poets», *Journal of Arabic Studies* XIV, pp. 1-12.

(٥) انظر الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الشعراء.

ما هي الأودية التي فيها يهيمون؟

وردت كلمة «وادي» - بصيغة المفرد والجمع - تسع مرّات في القرآن الكريم غير المرّة التي نحن بصددّها. فقد وردت في سورة النازعات: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(١). ووردت في سورة طه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾^(٢). ووردت في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾^(٣). ووردت في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾^(٤). وجاءت في سورة النمل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾^(٥). وجاءت في سورة الفجر: ﴿وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٦). وجاءت في سورة التوبة: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيَا﴾^(٧). وجاءت،

(١) سورة النازعات، الآية ١٦.

(٢) سورة طه، الآية ١٢.

(٣) سورة القصص، الآية ٣٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية ٣٠.

(٥) سورة النمل، الآية ١٨.

(٦) سورة الفجر، الآية ٩.

(٧) سورة التوبة، الآية ١٢١.

بصيغة الجمع، في سورة الرعد: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾^(١). وفي سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾^(٢).

والملاحظ في كل هذه الآيات الكريمة أن كلمة «واد» مستخدمة بمعناها الحرفي المعروف: إلا أن المفسرين ذهبوا إلى أنها جاءت في سورة الشعراء على سبيل المجاز. فماذا يقول المفسرون عن أودية الشعراء هذه؟

عن ابن عباس، رضي الله عنه، أن المقصود أن الشعراء «في كل لغو يخوضون». وعن مجاهد «في كل فن يفتنون». وعن قتادة «يمدحون قوماً يباطل ويشتمون قوماً يباطل»^(٣). وروي عن الحسن البصري رحمه الله: «قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرةً في شتمة فلان ومرةً في مديحة فلان»^(٤). وقيل: «المراد منه الطرق المختلفة كقولة أنا في واد وأنت في واد»^(٥). وقيل إن المقصود «تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق»^(٦). ولعل ما يلخص هذه الأقوال جميعها هو ما ذهب إليه الخازن من أن المقصود «أودية الكلام»^(٧).

وكل هذه الوجوه حسنة ومحتملة. ولكننا يجب ألا نفعل المعنى الحرفي لكلمة «واد». فلنتصور إنساناً لا يترك وادياً إلا ليدخل وادياً يخرج

(١) سورة الرعد، الآية ١٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٤.

(٣) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الشعراء.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الشعراء.

(٥) الفخر الرازي، التفسير الكبير، تفسير سورة الشعراء.

(٦) الرمخشري، الكشف، تفسير سورة الشعراء.

(٧) الخازن، لباب التأويل، تفسير سورة الشعراء.

ما هي الأودية التي فيها يهيمنون؟

منه ليدخل ثالثاً في دورة دائمة من الهيمان؟ أليس هذا شأن من تتبعه الشياطين تضله وتؤزّه؟ أليست مأساته شبيهة بمأساة الذي ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾^(١)؟ هؤلاء الشعراء لم يضربوا في أودية الكلام فحسب، كما يضرب كل الشعراء مشركين كانوا أو مؤمنين؛ بل ضربوا في أودية الضلال، وهي وقف على من كفر وضاع. وهل هناك صورة للتعبير عن الضلال البعيد أروع من صورة ذلك المسافر في رحلة أبدية من أودية لا نهائية ينبذه واد إلى آخر؟ وهذا حال الذين تغويهم الشياطين: لا تدع لهم هدفاً يسعون إليه، ولا صراطاً مستقيماً يمشون عليه، ولا قبلة يولونها وجوههم، ولا شعاعاً منيراً يضيء الطريق، ولا دليلاً يشرح المسالك. فماذا يبقى أمامهم سوى أن يقطعوا أيامهم ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

(٧) سورة الأنعام، الآية ٧١.

ماذا يقولون مما لا يفعلون؟

وردت في تفسير الآية الكريمة ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ عدة روايات. فقد جاء أن المقصود أن «أكثر قبيحهم باطل وكذب»^(١). وجاء أنهم «يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون من البخل ويصرون عليه»^(٢). وجاء أنهم يجاوزون الحد «حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم»^(٣). ونلاحظ أن كل هذه الأقوال تلف وتدور حول محور الكذب. كما نلاحظ أن الآية الكريمة لم تستخدم تعبير الكذب كما استخدمته آية كريمة سابقة في معرض الحديث عن الشياطين والكهّان. بل تحدثت الآية الكريمة عن صفة أخرى وهي أن هؤلاء الشعراء ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. ولا يوجد أدق من القرآن الكريم في الفاظه وتعابيره.

ولقد تنبّه إلى هذه النقطة ابن عباس رضي الله عنه حين أشار إلى قولهم: «ما لا يقدرّون أن يفعلوا»^(٤). كما تنبّه إليها الشيخ محمد الأمين

(١) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الشعراء.

(٢) الزمخشري، الكشاف، تفسير سورة الشعراء.

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير، تفسير سورة الشعراء.

(٤) تنوير المقباس، تفسير سورة الشعراء.

الشنقيطي فقال^(١): «وهذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون ما لا يفعلون بيّن في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده جلّ وعلا وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ • كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢).

قول الإنسان ما لا يفعل خصلة ذميمة والكذب خصلة ذميمة ولكنهما لا يعنيان الشيء ذاته. فإذا وصف أحد امرأة قبيحة بأنها أجمل من القمر فإنه كذب ولكنه لم يقل ما لم يفعل. أمّا إذا وعد إنسان إنساناً آخر أن يسلمه مبلغاً معيناً أول كل شهر ثم نكص عن الوفاء فقد فعل ما يتجاوز الكذب العادي مسيئاً ما لا تحمد عقباه من النتائج. والآية الكريمة لا تتحدّث عن كذب الشعراء ولكنها تتحدّث - بصفة دقيقة ومحددة - عن قولهم ما لا يفعلون. فهل تراها تشير إلى مسلك هؤلاء الشعراء عامة أم تتحدّث عن شيء معيّن بالذات قالوه ولم يفعلوه؟

يجيب عن هذا التساؤل باحث معاصر بذل في دراسة الآيات الأربع الكريمة من الجهد ما لم يبذله باحث قبله أو بعده، فيما اطلّعنا عليه من دراسات، فيؤكد أن القرآن الكريم يشير إلى واقعة محدّدة هي ادّعاء هؤلاء الشعراء أنهم يقولون «مثلما يقول محمد» - أي أنهم يستطيعون معارضة القرآن الكريم. يقول عرفان شهيد موضحاً:

إن الآية التي تصنفهم بعدم القدرة على فعل ما يقولون لا يمكن فهمها إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار تحدّي القرآن لمناوئيه بأن يأتوا بمثله. ولقد كان من الطبيعي أن يكون الشعراء هم المجموعة المؤهلة لقبول هذا التحدي إذ لا يمكن تصوّر أي مجموعة أخرى بإمكانها قبولها.

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، ص ٣٩٢.

(٢) سورة الصف، الآيتان ٢ و ٣.

ويضيف:

لقد قبل الشعراء التحدي الذي وجهه القرآن ولكنهم فشلوا في أن يأتوا بأي شيء مثل القرآن. وظل القرآن معجزاً. وبقي الشعراء موصومين بوصفتين: وصمة الكفر الذي دفعهم إلى معارضة القرآن، ووصمة العجز عن فعل ما قالوا إنهم سيفعلونه^(١).

ونرى أن ما ذهب إليه هذا الباحث لا يخلو من وجهة. وهو الشرح الوحيد المقبول للعبارة التي نقلتها كتب التفسير على ألسنة هؤلاء الشعراء «نحن نقول مثلما يقول محمد»^(٢) لم تبق لنا نتائج محاولاتهم في المراجع لأنها ذهبت أدراج الرياح. كما ذهبت كل محاولة أخرى عبر التاريخ - ولم تحتفظ ذاكرة التاريخ إلا بسطور قليلة نستخدمها للتندر والتسلية. وسوف يكون هذا شأن من يحاول في المستقبل. يبقى كل هؤلاء محكوماً عليهم بأنهم «يقولون ما لا يفعلون».

(١) للمزيد من القرائن والدلائل على ما ذهب إليه عرفان شهيد راجع بحثه، Irfan Shahid, «Another, Contribution To Koranic Exegesies», pp. 1-21.

(٢) انظر الخازن، لباب التأويل، تفسير سورة الشعراء.

آية الاستثناء

بعد أن تحدّثت السورة الكريمة في آيات ثلاث عن الشعراء الذين يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، والذين يهيِّمون في كلِّ وادٍ، والذين يقولون ما لا يفعلون استثنت منهم في الآية الرابعة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾. والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن الاستثناء قد جاء ليؤكد هوية الشعراء موضع الذم. آية الاستثناء تحدّثت عن «الذين آمنوا» ومقتضى ذلك أن الحديث كان عن قوم كافرين. وتضيف «وعملوا الصالحات» ويقتضي ذلك أن الحديث كان عن قوم يعملون السيئات. وتحدّثت عن ذكر الله كثيراً مما يؤكد أن المذمومين كانوا أبعد ما يكون عن ذكر الله. كما تحدّثت الآية عن الانتصار بعد الظلم، ومعناه عدم اللجوء إلى الهجاء إلا دفاعاً عن النفس، ويقتضى ذلك أن المذمومين كانوا سباقين مبادرين إلى هجاء الناس وأذاهم.

يسوّغ لنا، بعبارة أخرى، أن نقول إن صياغة الاستثناء جاءت تبين الشروط المطلوبة لقبول الشعراء المشركين في مجتمع المؤمنين، وهذه الشروط على النحو التالي:

- أولاً، أن يؤمنوا - تكفيراً عن كفرهم السابق.

- ثانياً، أن يعملوا الصالحات - تكفيراً عن أعمالهم الخبيثة الماضية.

- ثالثاً، أن يذكروا الله كثيراً - تكفيراً عن إجرامهم في حق الله

أيام غوايتهم.

- رابعاً، أن يكون هجاؤهم دفاعاً عن النفس فقط تكفيراً عن

مبادرتهم في السابق إلى هجو النبي ﷺ وأذى المسلمين.

ويذهب العلامة ابن كثير إلى معنى قريب من هذا حين يتحدث

عن الاستثناء فيقول:

يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ثم
تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما
تقدم من الكلام السيء...

ويضيف:

ذكروا الله كثيراً في كلامهم وقيل في شعرهم وكلاهما صحيح مكفر
لما سبق^(١).

هذا وتذهب عدة روايات إلى أن الاستثناء نزل في شعراء
الأنصار^(٢). والظاهر أن هذا القول مبني على مذهب الذين رأوا أن الآيات
الأربع الكريمة التي تتحدث عن الشعراء أنزلت في المدينة. ونحن لا تنازع
في انطباق آية الاستثناء على شعراء الأنصار الذين لا يرتاب مسلم أنهم
آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا. وإذا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الشعراء.

(٢) انظر، على سبيل المثال، تفسير سورة الشعراء في الطبري، جامع البيان، والقرطبي،
الجامع لأحكام القرآن.

كان الاستثناء ينطبق على شعراء المشركين الذين أسلموا فانطبقه على شعراء الأنصار أولى. فقد كان حسان بن ثابت، رضي الله عنه، مسلماً عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة. وقد شهد كعب بن مالك، رضي الله، بيعة العقبة. وقد كان عبدالله بن رواحة رضي الله عنه أحد النقباء ليلة العقبة.

ولنا أن نتذكر أن الله سبحانه وتعالى ذكر للأنصار، وشعراء الأنصار منهم، من الفضل ما يتجاوز الاستثناء من ذمّ موجه إلى الشعراء المشركين، حين قال جلّ ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١). كما أن النبي ﷺ قد شهد شعراء الأنصار مفاخر الدهر. فقد قال لكعب بن مالك يوم الخندق «لقد شكرك الله يا كعب»^(٢) وقال عن عبدالله بن رواحة «إن أخواً لكم لا يقول الرفث»^(٣)، وكان يستشهد بشعره كما سبق أن روينا عن عائشة أم المؤمنين. أما حسان بن ثابت فيكفيه عزاً أن اسمه ارتبط مع اسم النبي ﷺ فلم يعد يذكر اسم حسان إلا ووراءه «شاعر الرسول».

من هنا يرى المفسّرون أن الاستثناء ينطبق على كل شعراء المؤمنين. فابن عباس، رضي الله عنه، يقول إن الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الشعراء، «استثنى المؤمنين منهم»^(٤). ويقول القرطبي، «ثم استثنى

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثالث، ص ١٦٢.

(٣) ابن الأثير الجزري، جامع الأصول، المجلد الخامس، ص ١٧٣.

(٤) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة الشعراء.

شعر المؤمنين حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة... ومن كان على طريقهم^(١). ويقول ابن كثير إن الاستثناء «يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم»^(٢)، ويلخص الموضوع كله ما ذهب إليه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، إذ يقول «بهذا الاستثناء تبين أن المذمومين هم شعراء المشركين»^(٣).

وتنتهي الآية، والسورة، بقوله تعالى ﴿وَسَيَغْلُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، وقد أجمع المفسرون أن المقصود بهذا الوعيد كل الظالمين سواء كانوا من الشعراء المشركين الذين سبق الحديث عنهم - أو غيرهم من المعاندين الجاحدين الذين مرّ ذكرهم في السورة. وفي هذا يقول سيد قطب:

السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب، كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات تنتهي بهذا التهديد الخيف الذي يلخص موضوع السورة وكأنه الإيقاع الخيف المرهوب يتمثل في صور شتى يتمثلها الخيال ويتوقعها. وتزلزل كيان الظالمين زلزالاً شديداً^(٤).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الشعراء.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن، تفسير سورة الشعراء.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتوير، تفسير سورة الشعراء.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، ص ٢٦٢٣.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟

قبل أن نتبع مصائر هؤلاء الشعراء ينبغي أن نتوقف لحظة لنتبين طبيعة الجرم الذي ارتكبه بمقاييس الشريعة ومقاييس الثقافة التي كانت تسود المجتمع العربي في ذلك الوقت. نفصح المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يحدثنا عن الجرم الشرعي:

إن سب النبي ﷺ تعلق به عدة حقوق: حق الله سبحانه وتعالى من حيث كفر برسوله وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة، ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتها موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته؛ وتعلق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصاً أمته فإن قيام أمر دنياهم وآخرتهم به... وتعلق به حق رسول الله ﷺ من حيث خصوص نفسه فإن الإنسان تؤذيه الواقعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله... فعلم بذلك أن السب فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في الكفر والمحاربة^(١).

يصعب علينا اليوم، إن لم يستحل، أن نتصور أثر الهجاء في

(١) ابن تيمية، الصارم المسلول، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

المجتمع العربي القديم. إن طبيعة هذا المجتمع القبلية، ومكانة الشعر فيه، جعلت الهجاء أشد أسلحة الهجوم فعالية. وفي هذا يقول الجاحظ: «لأمر بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء»^(١). وينصح الجاحظ العقلاء أن يحرصوا كل الحرص على أن يكونوا بمنأى من سهام الهجاء «فيجب على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشعر ومضرته أن يتقي لسان أخس الشعراء وأجهلهم شعراً بشطر ماله بل ما أمكن من ذلك»^(٢). ويلخص الجاحظ موقف العربي من الشعر إذ يقول إنه لا يعلم في الأرض «بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً»^(٣).

ولنا أن نتوقع، في ضوء هذه الجناية العظيمة، أبشع العواقب وأفظعها لهؤلاء الشعراء بعد أن وقعوا الواحد تلو الآخر في يد الإنسان الذي تفتنوا في انتقاصه وهجائه وشمته. ولعل هذه العواقب الوخيمة كانت محتومة لولا أن هذا الإنسان كان محمداً ﷺ، الرجل الذي وصفه ربه عز وجل باللين والرفقة والرحمة. ما الذي حدث في ساعة الانتصار النهائي؟ فلنبدأ بزعيم الشعراء خبثاً وشعراً عبدالله بن الزبير، يحدثنا ابن سلام أنه «أسلم ومدح النبي ﷺ واعتذر إليه فأحسن»^(٤). ومما قاله في الاعتذار:

يا رسول المليك إن لساني راتق فافتق إذ أنا بور
إذ إجاري الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مثبور^(٥)

(١) الجاحظ، الحيوان، الجزء الأول، ص ٣٦٤.

(٢) الجاحظ، الحيوان، الجزء الخامس، ص ٢٩٤.

(٣) الجاحظ، الحيوان، الجزء الرابع، ص ٢٨٣.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٤٢.

(٥) ويشهد شاهد من أهلها أن الشعراء يتبعهم الغاوون!.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟

آمن اللحم والعظام بما قُلتَ
فنفسي القدى وأنت النذير^(١)
وقال أيضاً:

سرت الهموم بمنزل السهم
ندماً على ما كان من زلي
حيران يعمّه في ضلّالته
عمّة يزينه بنو جمح
فاليوم آمن بعد فسوته
عظمي، وآمن بعده لحمي^(٢)
وقال:

منع الرقاء بلابلٌ وهمومٌ
إنّي لمعتذرٌ إليك من الذي
أيام تأمرني بأغوى خطبة
فأغفر - فدى لك والديّ كلاهما -
مضت العداوة فانقضت أسبابها
والليل معتلج الرواق بهيمٌ
أسديثٌ إذ أنا في الضلال أهيم^(٣)
سهم وتأمرني بها مخزومٌ
ذنبى... فإنك راحمٌ مرحومٌ
وأنت أواصر بيتنا وحلوم^(٤)
كانت خاتمته سعيدة رائعة، فقد منحه الرسول ﷺ حُلّة^(٥)،
وشهد كل ما بعد الفتح من المشاهد^(٦)، رحمه الله.

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٤٢.

(٢) القرطبي المالكي، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، (بيروت: دار الكتاب العربي)، الجزء الثاني، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٣. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٣) ويشهد شاهد من أهلها أن الشعراء في كل وإد يهيمون!

(٤) القرطبي المالكي، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، الجزء الثاني، ص ٣٠٣.

(٥) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار الكتاب العربي) الجزء الثاني، ص ٣٠٠. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٦) القرطبي المالكي، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، الجزء الثاني، ص ٣٠٢.

وماذا كان من أمر ضرار بن الخطاب الفهري؟ أسلم بدوره، وعفا عنه النبي ﷺ، وقال يوم الفتح:

يا نبي الهدى إليك لجا حي قريش وأنت خير لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم اله السماء^(١)

ويبدو أن بقية من سلاطة الشعراء بقيت لدى ضرار بعد إسلامه. فقد روي أن الأوس والخزرج اختلفت فيمن كان أشجع يوم أحد فمرّ بهم ضرار بن الخطاب فقالوا «هذا شهدا وهو عالم بها» فبعثوا إليه فتى منهم سألته عن ذلك فقال «لا أدري أوسكم من خزرجكم ولكنني زوجت يوم أحد منكم أحد عشر رجلاً من الحور العين»^(٢). كما قال يوماً لسيدنا أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، «نحن كنا لقريش خيراً منكم، أدخلناهم الجنة وأوردتموهم النار». يشير إلى أن الذين قتلهم الكفار ذهبوا إلى الجنة والذين قتلهم المسلمون ارتحلوا إلى النار. وقد كانت نهاية هذا الفارس الشجاع متمشية مع فروسيته وشجاعته فقد قتل باليمامة شهيداً^(٣)، رحمه الله.

وماذا كان من أمر «أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب»؟ لنستمع إليه يروي القصة بنفسه بعد أن أسلم وأقبل يرجو عفو الرسول ﷺ أثناء الفتح:

فأقبل الناس، رسلاً بعد رسل، فتخيتُ فرقا من أصحابه، فلما طلع في موكبه تصديتُ له تلقاء وجهه، فلما ملأ عينيه مني أعرض عني

(١) المرجع السابق نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء الثاني، ص ٢٠١.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتجمع الغاؤون؟

بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى، فأعرض عني مراراً، فأخذني ما قرب وما بعد، وقلت إني مقتول قبل أن أصل إليه... فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله ﷺ أعرضوا عني جميعاً، فلقيني ابن أبي قحافة معرضاً عني، ونظرت إلى عمر يغري بي رجلاً من الأنصار... فدخلت على عمي العباس... قال «لا والله لا أكلّمه كلمة فيك أبداً بعد الذي رأيت منه ما رأيت حتى أرى وجهاً»... فلقيت عليّاً فكلمته فقال لي مثل ذلك... وجعلت لا ينزل [النبي ﷺ] إلا أنا على بابي ومعني ابني جعفر قائم فلا يراني إلا أعرض عني^(١).

ثم استأذنت له أم سلمة، رضي الله عنها، وذكرت الرسول ﷺ أن ابن عمه فقال «أما ابن عمي فقد هتك عرضي»^(٢) وأبى أن يأذن له. فقال «والله ليأذن لي رسول الله ﷺ أو لأخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً»^(٣). فرق له الرسول ﷺ وعفا عنه.

قال بعد ذلك:

لعمرك أني حين يوم أحمل رايةً لتغلب خيل اللات خيل محمد
كالمدلج الحيران أظلم ليلةً فهذا أو أن حين أهدي واهتدي
هداني هادٍ غير نفسي وقادني إلى الله من طردت كل مطرد
روي أن الرسول ﷺ، قال، «أنت طردتني كل مطرد؟» كأنه ينكرها، يردد ذلك»^(٤).

(١) ابن تيمية، الصارم المسلول، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٤٧.

وقال في رثاء الرسول ﷺ:

أرقتُ فبات ليلتي لا يزولُ وليل أخي المصيبة فيه طولُ
فأسعدني البكاء.. وذاك فيما أصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عظمْتُ مصيبتنا وجلتُ عشية قيل قد قبضَ الرسولُ
وأضحْتُ أرضنا ممّا عراها تكاد بها جوانبنا تميلُ
وذاك أحقّ ما سالت عليه نفوس الناس، أو كادت تسيلُ
نبيّ كان يجلو الشكّ عنا بما يُوحى إليه وما يقولُ
أفاطمُ إن جرعتِ فذاك عذرُ وإن لم تجزعي ذاك السبيلُ

وقد شهد أبو سفيان حنيناً وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان ممن ثبت ولم يفتر يومئذٍ ولم تفارق يده لجام بغلة الرسول ﷺ. وقد روى أن النبي ﷺ كان يحبه وشهد له بالجنة. ولما حضرته الوفاة قال «لا تبكوا عليّ، فإني لم أنتطف بخطيئة منذ أسلمتُ»^(١). رحمه الله.

وماذا كان من أمر ذلك الشاعر الجشع الناكث للعهد، أبو عزة الجمحي؟ لم تكن خاتمته سعيدة كأولئك الذين سبقوه. روي أنه برص بعد أن أسنّ، وكانت قريش تكره الأبرص وتخاف العدوى، فكانوا لا يؤاكلونه ولا يشاربونه حتى عزم على الانتحار^(٢). وكنا قد رأينا أنه خرج مع المشركين يوم أحد يحرضهم على القتال. وفي أحد كانت نهايته. وهناك روايتان تصوّران هذه النهاية. الرواية الأولى أن المسلمين أسروه فقال «يا رسول الله! منّ عليّ» فقال النبي عليه السلام «لا يلسع المؤمن من جحر مرتين. لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعتُ محمداً مرتين»

(١) القرطبي المالكي، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، الجزء الرابع، ص ٨٤.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٥٦.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتجههم الغارون؟

وأمر بقتله^(١). أما الرواية الثانية فتذهب إلى أنه جرح أثناء المعركة ومات متأثراً بجراحه، وتنقل هذا الرواية عن ابن جعدي قوله «ما أسر يوم أحد لا هو ولا غيره ولقد كان المسلمون يومئذ في شغل عن الأسر»^(٢). ورغم أن هذه العبارة تتماشى مع ما نعرفه من حقائق المعركة إلا أن كتب السيرة تكاد تجمع على تأييد الرواية الأولى^(٣).

ماذا كان من أمر هبيرة بن أبي وهب؟ أثر هذا الشاعر الضال أن يهيم في أودية الضلال بقية عمره. فقد هرب إلى نجران وبقي فيها. وكانت عنده أم هانئ بنت أبي طالب، واسمها هند، فقال حين بلغه إسلامها:

أشأقتك هند أم أتاك سؤالها	كذاك النوى أسبابها وانفتلها
وقد أرقّت في رأس حصن ممنوع	بنجران يسري بعد ليل خيالها
وعاذلة هبت بليل تلومني	وتعذلني بالليل ضلّ ضلالها
وتزعم أنني إن أطعْتُ عشيرتي	سأردى وهل يردن إلا زيالها
فإن كنت قد تابعت دين محمد	وعطفت الأرحام منك حبالها
فكوني على أعلى سحيق بهضبة	مللمة غبراء يبسّ بلالها

وبقي في نجران كافراً إلى أن مات^(٤).

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٥٥.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) على سبيل المثال، انظر ابن سعد الطبقات الكبرى، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م) المجلد الثاني، ص ٤٣، وانظر ابن حزم، جوامع السيرة، (الرياض: وزارة المعارف)، ص ١٧٤. (لم يذكر تاريخ الطبعة). وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الثالث، ص ٦٣.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الرابع، ص ٤٦ - ٤٧.

وماذا كان من أمر الحارث بن هشام بن مغيرة المخزومي؟ هنا نهاية رائعة سعيدة أخرى. أسلم الحارث يوم مكة وحسن إسلامه وخرج في زمن عمر بأهله وماله من مكة إلى الشام فبعه أهل مكة. فقال «لو استبدلت داراً بدارٍ ما أردت بكم بدلاً ولكنها النقلة إلى الله»^(١). جاهد في الشام وكان يحمل على الكفار ويرتجز:

إنني بررتي والنسبي مؤمنٌ والبعث من بعد الممات موقنٌ
واستمر يجاهد حتى «ختم الله له بخير»^(٢)، رحمه الله.

وماذا عن الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ «كاد يسلم في شعره»^(٣) أمية بن أبي الصلت الثقفي؟ قبل أن نستمع إلى قصة نهايته فلنستمع إلى أسطورة من حياته المليئة بالأساطير تقصها علينا أخته. تقول إن أمية كان نائماً عندما أقبل طائران أبيضان سقط أحدهما على أمية وشق بطنه، وثبت الطائر الآخر على السقف. قال الطائر الأعلى للأسفل «أوعى؟» قال «وعى» قال «أقبل؟» قال «أبى». فردّ عليه قلبه. وطار الطائران. فلما استيقظ سأله أخته إن كان قد أحس شيئاً فأجابها بالنفي. فأخبرته بما حدث. فقال «يا أخي! أنا رجلٌ أراد الله به خيراً فلم يقبله»^(٤).

ولنستمع، الآن، إلى أخته تقصّ علينا مشهد وفاته. تقول إنه نظر إلى السماء ثم قال:

(١) ابن حجر، الإصابة في أسماء الصحابة، الجزء الأول، ص ٢٩٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن الأثير الجزري، جامع الأصول، الجزء الخامس، ص ١٦٩.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢٦٦.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتجهم الغاؤون؟

ليكما.. ليكما ها أنذا لديكما

لا ذو براءة فاعتذر، ولا ذو قوة فانتصر. ثم أغمي عليه. ثم فتح عينه ونظر إلى السماء وقال:

ليكما.. ليكما ها أنذا لديكما

لا ذو عشيرة تحميني، ولا ذو مالٍ يفديني، ثم أغمي عليه، ثم فتح عينه وقال:

ليكما.. ليكما ها أنذا لديكما

بالنعم محفود، من الذنب مخضود^(١). ثم أغمي عليه ثم شق بصره وقال:

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأني عبد لك ما ألما
ثم أغمي عليه، ثم أفاق فقال:

ليتي كنتُ قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
كل عيش، وإن تطاول دهرأ قصره مرةً إلى أن يزولا
ثم خفت فمات^(٢).

لنا أن ننازع في صحة التفاصيل ولكن لنا أن ننازع في أن
هذه النهاية الأسطورية أجدر ما تكون بشاعر أسطورة.

ماذا كان من أمر عبدالله بن خطل؟ أمر النبي ﷺ يوم فتح مكة

(١) محفود أي مخدوم - ومخضود أي منقطع الحجة.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

بقتله ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة. وقد وجد بالفعل متعلقاً بأستار الكعبة فأخرج منها وضربت عنقه. يقول ابن اسحاق إن النبي ﷺ أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه الرسول ﷺ مصدقاً ومعه رجل من الأنصار، وكان معه مولى مسلم، فأمره أن يصنع طعاماً فلما استيقظ وجده لم يصنع شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتدّ مشركاً^(١). ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على الحادثة فيقول «له ثلاث جرائم مبيحة للدم: قتل النفس، والردة، والهجاء»^(٢).

وأخيراً، ماذا كان من أمر كعب بن زهير؟ لعل قصته أشهر قصص التوبة والأمان في تراثنا الشعري منه على أية حال. إلا أنها قصة جميلة لا تفقد روعتها بالتكرار - فلنلّم بها هنا الإمامة خاطفة. بلغ زهيراً وعيد الرسول ﷺ فأتى مزينة لتجيره. فأبى عليه ذلك. فضاقت عليه الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان عدوّه فقال هو مقتول. فكتب قصيدته. ثم خرج إلى المدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه مودة فأتى به إلى المسجد وأشار إلى رسول الله ﷺ. وكان أصحابه، ﷺ، يتحلّقون حوله فيقبل على هؤلاء فيحدثهم ثم يقبل مع هؤلاء فيحدثهم. فقام إليه حتى جلس بين يديه فوضع يده في يده ثم قال «إن كعب بن زهير قد جاءك ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به». قال «نعم»، قال «أنا يا رسول الله كعب بن زهير»^(٣). فأمنه الرسول ﷺ - فأنشد:

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الرابع، ص ٣٩.

(٢) ابن تيمية، الصارم المسلول، ص ١٣٥.

(٣) جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، شرح قصيدة كعب بن زهير، ص ٣٦.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟

بانت سعادٌ فقلبي اليوم متبولٌ مُتَيِّمٌ إثرها لم يَفِدْ مكبولٌ
حتى انتهى إلى قوله:

وقال كل خليل كل آملهُ لا ألفينك، إني عنك مشغولُ
فقلتُ خلوا سبيلي، لا أبا لكم فكل ما وعد الرحمن مفعولُ
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حذاء محمولُ
أنبتُ أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ
فلما وصل إلى قوله:

إن الرسولَ لسيفٌ يُستضاء به مهتدٌ من سُيوفِ الله مسلولُ
رمى عليه النبي ﷺ بردة كانت عليه^(١). ودخلت البردة
التاريخ، ودخلت قصيدة البردة، ودخلت معها كل قصيدة نهجت «نهج
البردة».

(١) جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، شرح قصيدة كعب بن زهير، ص ٣٧.

من هو آخر الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟

من إعجاز القرآن الكريم ومن مظاهر خلوده أنه ينطبق على أحداث اليوم، كما انطبق على أحداث الأمس، كما ينطبق على أحداث الغد. فإذا تحدث القرآن الكريم عن «الذين آمنوا» فهو يتحدث عن المؤمنين في كل زمان ومكان. وإذا تحدث عن «المنافقين في المدينة» - سرى ما يقوله على المنافقين في كل مدينة. وإذا تحدث عن الذين «في قلوبهم مرض» كان الحديث عن كل من يعاني قلبه هذا الداء في كل عصر. ليس لنا أن نستغرب، إذن، إن وجدنا ما يقوله القرآن الكريم عن الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون ينطبق بحذافيره على شاعر معاصر يتبعه الغاؤون.

هذا الرجل يعرفه الناس جميعاً، فقد شغل الناس جميعاً، ولكنهم لا يعرفونه أنه شاعر بالإضافة إلى كونه روائياً. فهو في روايته الآيات الشيطانية يفسح مجالاً واسعاً لشاعر يسميه بعل يهجو المسلمين والإسلام. يقول سلمان رشدي على لسان بعل:

أيها الرسول، أعرني رجاءً

أذنأ تصغي. إن هوسك بالتوحيد،

أحد أحد أحد، لا يصلح للجاهلية

يعاد إلى مرسله^(١)

ويقول على لسان بعل معلقاً على الهجرة:

أي فكرة

يدو عليها الإسلام اليوم؟

فكرة مليئة بالخوف

فكرة تهرب بعيداً^(٢).

أما أن الشياطين تتبّع هذا الرجل فأمر لا يحتاج بيانه إلى كثير من العناء. فقد اختار لروايته اسم الآيات الشيطانية وبدأها بفقرة، هي بمثابة المدخل للرواية، مأخوذة من كتاب عن تاريخ الشيطان، وجعل شخصيتها الرئيسية الشيطان. والشياطين هي التي زينت لهذا الرجل شتم محمد ﷺ. فعلى خلاف الشعراء المشركين لم تكن هناك «سهم» أو «مخزوم» وراء الهجوم. ولم تكن ثمة حرب بينه وبين المسلمين أو بينه وبين أحد منهم. لقد فعل فعلته لأن الشيطان اتبعه فكان من الغاوين.

وهو في كل واد يهيم. فقد ولد في الهند وعاش فيها فترة من الزمن. ثم ألف رواية اسمها أطفال منتصف الليل — تتحدث عن الصغار الذين ولدوا مع مولد الهند المستقلة وتتبع مسيرتهم بعد أن كبروا - مليئة بالحق على الهند وعلى كل ما هو هندي. ثم عاش فترة في باكستان

(١) Messenger, do please lend a careful ear. Your monophilia. Your One

One One, ain't for Jahilia Return to sender.

Salman Rushdie, *The Satanic Verses*, (London: Viking, 1988), p. 106.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٥.

What kind of idea Does «Submission» seem today one full of fear, An idea that runs away.

من هو آخر الشعراء الذين يَجمَعهم الغاؤون؟

وَأُلف رواية اسمها العار ينضح كل حرف فيها بالضغينة على الباكستان وعلى كل ما هو باكستاني. ثم عاش في الغرب، يتمسح بأذياله، فنبذه الغرب ورفض أن يعترف به واحداً من أبنائه، فشتمه كما شتم الآخرين. هو في كل واد يهيم. فلا هو بالشرقي ولا هو بالغربي. ولا هو بالمسلم ولا بالمسيحي. ولا هو بالمحدد ولا بالوثني. أما عن هيمانه في أودية الكلام فحدث ولا حرج. تكاد كتابته أن تكون أحاجي وألغازاً - وقد قال كاتب بريطاني عنه، مازحاً، «إنه يستحق القتل في نظري، لا لإساءته إلى الإسلام بل لإساءته إلى اللغة الإنجليزية».

أما كونه يقول ما لا يفعل، فقد كتب روايته ليدحض معجزة النبوة. فغلاف الكتاب يتحدث أن الكتاب معني بصفة مركزية بالنبي «الذي يتلقى وحياً تتمزج فيه الآيات الشيطانية بالربانية». هذا ما قاله - فهل فعل ما قال؟ - كل ما فعله أنه ألقى بنفسه في وادٍ ضيق جديد يحرسه ليل نهار قومٌ شتمهم، يكرههم ويكرهونه.

ما أشبه الليلة بالبارحة! قالت أم جميل، وهي زوجة أبي لهب، التي نعرفها جميعاً باسمها الذي أطلقه القرآن الكريم عليها، حمالة الخطب، قالت تهجو النبي ﷺ:

مُذَمِّمًا عَصِينَا وَأَمْرَهُ أَبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا

فقال عليه الصلاة والسلام «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يهجون مذمماً وأنا محمد»^(١). وهذا الشاعر الشيطاني الجديد

(١) انظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م)، الطبعة الأولى، المجلد الثالث، ص ٦٠٨.

عندما أراد شتيمة النبي ﷺ جبن عن استخدام اسمه الحقيقي فرمز إليه بشخصيته سماها «ماهوند» - وهو اسم الشيطان في اللغة الاسكتلندية القديمة. وهكذا جاءت كل قذارات رشدي وبذاءاته منصبة على الشيطان - وصرف الله الأذى عن رسوله.

لقد رأينا مصير الشعراء المشركين في عهد النبوة فماذا عن مصير هذا الشاعر بعد أن لحق من يملك الحق في العفو بالرفيق الأعلى؟ مصيره من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، غير أننا نعلم مصير شاعره بعل. لقد اختار له سلمان رشدي أن يموت مقتولاً مع كوكبة من المومسات. وعلم هذا الاختيار العجيب عند علماء النفس، وربما عند الشياطين!.

وبعد:

كانت الصفحات الماضية جهداً متواضعاً لتدبر أربع آيات كريمة من كتاب الله المجيد، لا أقول فيه إلا ما قاله الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه، «إن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله وبريثان».

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(١).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤.

المراجع

باللغة العربية

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، (بيروت: مكتبة حلواني، مطبعة الملاح، مطبعة دار البيان، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
- ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، (الرياض: الحرس الوطني، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن جزّي، تفسير ابن جزّي، (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م - ١٤٠٤هـ).
- ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة (بيروت: دار الكاتب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن حزم، جوامع السيرة، (الرياض: وزارة المعارف، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثماني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- ابن عباس، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، (بيروت: دار الفكر

- للطباعة والنشر والتوزيع - لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن عبد ربه، العقد الفريد، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).
- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، (القاهرة: دار التراث العربي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- ابن قدامة، المغني، (القاهرة: مطبعة العاصمة، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن هشام، السيرة النبوية، (الرياض: وزارة المعارف، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- البغوي، معالم التنزيل، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- دائرة المعارف الإسلامية، (يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، لم يذكر مكان الطبعة ولا تاريخها).
- الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت: محمد فاضل الدايدة، الطبعة الرابعة، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الجاحظ، الحيوان، (القاهرة: مصطفى الباي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).
- الجصاص، أحكام القرآن، (بيروت: دار الكتاب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، (دمشق: الوكالة العامة للتوزيع، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار العلم

- للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م).
- حسنين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، (القاهرة: دار الشروق، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ - ١٩٨٢م).
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- سيد قطب، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٣٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الشافعي، كتاب الأم، (بومبي: أبناء مولوي محمد بن غلام رسول السورتني، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الشوكاني، فتح القدير، (بيروت: محفوظ العلي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة، ١٩٧١م).
- الصنعاني، المصنف، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، (بيروت: مؤسسة الأعلمي

- للمطبوعات، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، (بيروت: دار الكتب العربية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)، التفسير البياني للقرآن الكريم، (القاهرة: دار المعارف، الجزء الأول، ١٩٨٢م).
- الفخر الرازي، التفسير الكبير، (طهران: دار الكتب العلمية، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الفرزدق، ديوان الفرزدق، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار الكتاب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- القرطبي المالكي، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، (بيروت: دار الكتاب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- مكتب الترية العربي لدول الخليج، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، (الرياض: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م - لم يذكر تاريخ الطبعة).
- محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، (الرياض: وزارة المعارف، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (القاهرة: مطبعة

- السعادة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).
- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٧م).
- محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م).
- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م).
- محمد ناصر الدين الألباني، مختصر صحيح مسلم، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- المناوي، فيض القدس شرح الجامع الكبير، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م).
- النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

باللغة الإنجليزية

- Asad, Mohammad, **The Message of the Quran**, (Gibraltar: Dar Al-Andalus, 1980).
- Rodwell, J.M. **The Koran**, (London: Everyman's Library, 1978).
- Rushdie, Salman, **The Satanic Verses**, (London: Viking, 1988).

- Shahid, Irfan, «A Contribution to Koranic Exegesis», in **Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Jibb**, Edit: G. Makdisi, (Leiden, 1965).
- Another Contribution to Koranic Exegesis, **Journal of Arabic Studies**, XIV.

محتويات الكتاب

٧	مدخل
١٥	الشعر والشعراء في القرآن الكريم
١٩	الشعر والشعراء في السنة النبوية
٢٥	الشعر والشعراء في أقوال السلف الصالح
٢٧	موقف الإسلام من الشعر
٣٣	سورة الشعراء
٣٩	من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟
٥١	من هم الغاؤون الذين يتبعون الشعراء؟
٥٧	ما هي الأودية التي فيها يهيمون؟
٦١	ماذا يقولون مما لا يفعلون؟
٦٥	آية الاستثناء
٦٩	ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟
٨١	من هو آخر الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون؟
٨٥	المراجع

«من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون» محاولة جادة
لوضع اليد على المفتاح الذي يسهل تفسير الآيات القرآنية
الأربع من سورة الشعراء التي أتت على ذكر الشعراء
الذين يتبعهم الغاؤون وفهم مضمونها.

وللإجابة عما إذا كانت الآيات الكريمة تجسد عداءً
جلياً للشعر والشعراء جميعاً، أم أنها تتحدث عن شعراء
بعضهم، يستعرض المؤلف موقف القرآن الكريم من الشعر
والشعراء، وكذلك موقف السنة النبوية المطهرة والسلف
الصالح، وينتهي إلى أن موقف الإسلام لم يتصف بالعداء
والمناهضة للشعر من حيث هو شعر وللشعراء من حيث هم
شعراء، وإنما كان المقصود بالآيات الكريمة شعراً كافراً
لشعراء كفار هجوا الرسول وحاربوا الدعوة الإسلامية قولاً
وفعلاً.

ISBN 1 85516 895 2